أخلاق الأدبَاء

أسمارٌ وأحاديثٌ

عنوان الكتاب: أخلاق الأدبَاء أسمارٌ وأحاديثٌ

تأليف : د. إبراهيم الكيلاني

اختيار وتقديم : أ.فلك حصرية

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/183/ شباط 2023

الناشر: اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني: وفاء الساطي

الحقوق كافة

محفوظة

لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني:mawkif@tutanota.com

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت

ttp://www.awu.syh

الدكتور إبراهيم الكيلاني

أخلاق الأدباء

أسمارٌ وأحاديثٌ

اختيار وتقديم
أ. فلك حصرية

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (183)

تقديم

أ. فلك حصرية

يعـود الـدكتور إبـراهيم الكيلانـي بنسـبه إلى العـالم القطـب الأكـبر "عبـد القـادر الجيلانـي" الـذي يعـود نسـبه إلى الحسن السبط ابن أمير المؤمنين "علي بن أبي طالب" والسيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول محمد (ص).

ولـد الـدكتور إبـراهيم في دمشـق لعـام "1916" وتوفـاه اللّه "2004".

سافر إلى فرنسا وتابع دراسته الجامعية فيها، حيث نال الشهادة الجامعية في العام1931، ومن ثم حصل على شهادة الـدكتوراه في الآداب في العـام 1948 في جامعـة السـوربون بفرنسا، ليعود بعدها إلى دمشق ويدرس الأدب واللغة العربية في مدارسها الثانوية، وقد تم انتدابه للإشراف على الإدارة في الكلية العلمانية "اللاييك" من الحكومة السورية. ترأس

تحرير مجلة "الآداب الأجنبية" على مدى سبع سنوات، وعضوية هيئة مجلة "التراث العربي" وعضوية جمعية "النقد الأدبي" في اتحاد الكتاب العرب، وهنا لا يفوتنا التنويه إلى أنه من أوائل المنتسبين لهذا الاتحاد. في العام 1994 أقامت له مجلة الثقافة، بالتعاون مع وزارة الثقافة حفلاً تكريمياً كبيراً، وكان قد مُنح جائزة تقديرية مناصفة مع الأديب الكبير وليد إخلاصي من اتحاد الكتاب العرب. ساهم في إغناء المكتبة العربية بأكثر من أربعين كتاباً في الترجمة والتأليف، وكذلك مُنِح وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة، من مؤلفاته:

- الحجاج الحاكم والخطيب 1944.
- أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري ـ تحقيق 1944.
- الأدباء العشرة 1945.
- الوجيز في الأدب العربي 1946.
- عبقريات شامية 1946.
- ثلاث رسائل لأبي حيّان التوحيدي 1951 ـ تحقيق.
- أديبات من الغرب 1955.
- العالم السينمائي وصلته بالثقافة والفن 1960.
- أدباء من الجزائر 1962.

ـ محمد البزم شاعر العربية ونحويها 1969.

ـ الأوراق 1969.

ـ شخصيات 1973.

ـ معروف الرصافي 1978.

إضافة إلى أعماله في الترجمة منها: أبو الطيب المتنبي 1985 ـــ الغزل عند العرب "مجلدان" 1985، النقد الكلاسيكي أعلامه وأصوله 1989 ـ إسرائيل والصهيونية السياسية 1984،.

يعد الدكتور إبراهيم الكيلاني من المفكرين والفلاسفة والمؤرخين الذين تركوا بصماتهم وأكدوا حضورهم على الساحة الأدبية والفكرية، كتب الباحث "محمد مروان مراد" متحدثاً عن الدكتور إبراهيم الكيلاني:

"لم يمنعه عمله الجاد من مواصلة مسيرته الفنية في التأليف والتحقيق والترجمة فأنفق عمره ساهراً وراء مكتبه، يقدم لقرائه ثمرات فكره اليانعة، وقد اقترن اسمه "بأبي حيان التوحيدي" دراسة له وتحقيقاً لآثاره، كما قام بدراسة حياة وأعمال عدد من الأعلام المعاصرين: "أسعد باشا، عزة باشا العابد، رضا الركابي" وقدّم دراسات عن بعض الأدباء الشعراء: "معروف الرصافي، محمد البزم، خليل مردم بك،

شكري فيصل، أحمد الصافي النجفي" أما مؤلفاته فمنها: "الحجاج الحاكم والخطيب، معروف الرصافي، الأوراق، الإمتاع والمؤانسة، وهما مجلدان لأبي حيّان التوحيدي، ثلاث رسائل "لأبي حيّان التوحيدي" عبقريات شامية، الأدباء العشرة".

أما عن نشاطه الإعلامي فكتب مراد:

"أقبل في وقت مبكر بخطوات ثابتة لينشر في أشهر مجلات الثقافة والأدب في العالم العربي مجلة "الرسالة" وقد قال ذات مرة، باعتداد خفي وبلطف وظرف معروفين عنه: "من نشر في الرسالة شيئاً فقد تكرّس أديباً" كما كان مراسلاً أدبياً لمجلة "الكتاب" التي تصدرها دار المعارف 1945 ــ 1953 وكانت ملتقى أقلام كبار الكتاب في مصر والوطن العربي.

ويختتم الباحث مراد بالقول:

"تلاميذه وجدوا فيه أديباً موسوعياً، يعطيهم من ينبوعٍ ثرٍ، وقد سحرهم بلغته الجزلة وأسلوبه البليغ، حين راح يعرفهم على مواطن الجمال في اللغة العربية، من خلال الشواهد المتألقة من النثر والشعر التي كان يختارها لهم بمهارة المنقّب الخبير بجواهر التراث الفكري العربي".

أما الدكتور "حسين جمعة" فيقول:

"رحم الله الأستاذ الدكتور إبراهيم الكيلاني الرجل الإنسان، والأستاذ الراقي في علمه وخلقه، ولن أنسى ما حييت تلك العلاقة التي قامت بيني وبينه في كلية الآداب، ثم اتحاد الكتاب العرب، إذ كان شغوفاً بالحديث عن مكتبته وكتبه، وكيف يتعامل مع كل كتاب يقتنيه مجدداً وطالما سرد على مسامعي حكاية الكتاب الذي يضعه على طاولة المكتب فإذا ما خرج ورجع باحثاً عنه، وجده في سقيفة المطبخ "حرفياً عن لسانه" ولم يكن تعليقه على ذلك إلا أن الضرة لا تكره إلا الضرة وأكبر ضرة للمرأة هي الكتب، لأنها تأخذ مساحة كبيرة من منزلتها ومنزلها وقد قدم الدكتور للمكتبة العربية عدداً من الكتب المهمة، وقد سدّت ثغرة فيها، وتبقى ترجمته لكتاب "تاريخ الأدب العربي" أفضل الترجمات فقد اتّسمت ترجمته بالبراعة والدقة، وجمال الأسلوب، بوصفه متقناً للغتين: العربية والفرنسية.

وانتقلنا بعد هذه الاستفاضة إلى هذا الكتاب الذي اخترناه لكم ـ قراءنا الأعزاء ـ كتاب جيب لمجلتنا الغرّاء "الموقف الأدبي" حيث يلقي الدكتور إبراهيم الكيلاني "الأديب والناقد والمؤرخ والمفكر" الضوء على جانب هام من

الجوانب المتعلقة بالإنسان "الأخلاق" من خلال شخصيةٍ أدبية عملاقة، وذات حضور وتأثير كبيرين، إنه عميد الأدب العربي بلا منازع الدكتور طه حسين، ليتناول من خلال العنوان الأكبر لهذا المؤلف "أخلاق الأدباء" مقدِّماً نماذج في هذا المجال، وصوراً لمعارك أدبية:

- طه حسين ومصطفى صادق الرافعي.
- طه حسين والمنفلوطي.
- طه حسين ومحمد حسين هيكل.
- طه حسين وتوفيق الحكيم.
- طه حسين والآنسة مي

إضافة إلى ما جاء في الكتاب من عناوين أخرى أرادها صاحبه وأوردها تأييداً لعنوانه، وتنويهاً له: "زكي مبارك ـ أديبة القرن العشرين ـ خواطر صحفية ـ الأدب والصحافة ـ الثلج والشعراء".

جاء في التقديم لهذه الشخصية "د. طه حسين" عبر أحد المواقع الأدبية: "طه حسين: أديب ومفكر مصري، يعدُّ علماً من أعلام التنوير والحركة الأدبية الحديثة، امتلك بصيرة نافذة، وإن حرم البصر وقاد مشروعاً فكرياً شاملاً استحقّ به

"عميد الأدب العربي" وتحمّل في سبيله أشكالاً من النقد والمصادرة".

ولد الدكتور طه حسين في قرية "الكيلو" بمحافظة "المينا" في جمهورية مصر العربية، في "نوفمبر 1889"، وتوفاه الله في "أكتوبر" 1973 عن عمر يناهز "84" عاماً.

قضاها مؤلفاً وصانعاً من صناع النور، رغم فقده لنور بصره وهو في الرابعة من عمره إلا أن ذلك لم يكن ليقف في وجه طموحه وعبقريته الأدبية الفذة، وقد ساعدته ذاكرته الحافظة، وذكاؤه المتقد على تعلم اللغة والحساب والقرآن الكريم خلال فترة وجيزة، جعلت بل فاجأت شيخه "محمد جاد الرب" بهذه القدرة الخارقة والقادرة على تلقف العلم بنهم لافت وسرعة خارقة، ساعدته على متابعة مسيرته الدراسية بخطوات متسارعة فالتحق بالتعليم الأزهري، ومن ثم كان أول المنتسبين إلى الجامعة المصرية 1908 وحصل على درجة الدكتوراه 1914 متجهاً لخوض أولى معاركه مع الفكر التقليدي لتأتي أطروحة "ذكرى أبي العلاء" مثيرة وبشدة موجة عالية من الانتقاد، وقد أوفدته الجامعة المصرية إلى فرنسا، ليعد هناك أطروحة الدكتوراه الثانية "الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون" مجتازاً في الوقت ذاته دبلوم الدراسات العليا

في القانون الروماني، وليكن لزواجه بالسيدة الفرنسية "سوزان بريسو" عظيم الأثر والدافع الأقوى لمسيرته الأدبية والعلمية حيث نجحت في أن تكون عينيه اللتين يبصر بهما، والرفيقة المخلصة، المؤمنة بقدراته الخارقة ومثابرته، وشدة إصراره وعزيمته على متابعة الطريق التي اخطتها لتحقيق هدفه والوصول إلى غاياته الرفيعة: إلى جانب جهوده الأدبية والعلمية، شغل مناصب رفيعة عديدة: أستاذاً للتاريخ اليوناني والروماني بالجامعة المصرية ـ أستاذاً لتاريخ الأدب العربي بكلية الآداب ثم عميداً لها ـ مستشاراً لوزير المعارف ـ مديراً لجامعة الإسكندرية ـ وزيراً للمعارف 1950 ـ مؤسساً لعدد من الجامعات المصرية ـ وقد تسلم رئاسة تحرير جريدة "الجمهورية".

ترك عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين مؤلفات ذات قيمة أدبية، ثقافية، تمايزت بحضورها القوي وما أثارته من حراك نقدي، وأفكار ذات طبيعة محدثة وصادمة لبعض من يدعي التجديد والتحديث في حين جاءت أطروحاته التجديدية، وحداثيتها لتحصد النصيب الأكبر من الهجوم الذي انتهى به الحال إلى الارتطام بدعاوى قضائية أقيمت ضد عميد الأدب العربي... ولتترك بين السطور خطوط هجوم لاذع

أخص به البعض، مطلقاً عما يعتمل في نفسه، من تصورات ونزعات ووجهات نظر، وقد جاء هذا الكتاب الذي بين أيدينا بعرض لبعض الظواهر والأخبار التي تعين على رسم لم تخل بعض صوره من عنف بلغ ـ أحياناً حدّ الهجاء المقذع، إذا استعملت فيه، عبارات وألفاظ مثيرة تحط من قدر المتساجلين كاشفة عن حقيقة نفوس الأدباء، وطبائعهم، إضافة إلى ما تبنيه من الزيف أو الأصالة.

في العام 1973 سُمع أحدهم، عندما نعي عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين يقول:

"مات مالك الدنيا وشاغل الناس" ذلك لأنه اعتبر أحد كبار الأدباء العرب في القرن العشرين وقد استطاع، وحاول ونجح خلاله ـ الهيمنة على الفكر العربي في ميادين "البحث والأدب" متمتعاً بشهرة لم يحظَ بها كاتب أو أديب أو مفكر عربي. قرأ المهتمون كتبه ونتاجاته، وفسروا وناقشوا وانتقدوا على جميع المستويات "المدارس ـ الجامعات ـ الصحف وسائل الإعلام" كما ترجمت مؤلفاته إلى لغات عدة، وطار صيته من "مصر والبلاد العربية إلى شتى البلاد الأوروبية"، فجابت العالم، معرفة به، ومقدمته إلى الساحة الأدبية والفكرية والثقافية، وحتى الجدلية، مطلقة عليه بإعجاب واحترام

وإجلال "عميد الأدب العربي" لتكون ظاهرة فريدة من نوعها، تحصل لأول مرة في التاريخ الحديث.

لقد استحق وبجدارة هذا اللقب الرفيع المستوى، بعدما ساهم في صياغة العقل العربي المعاصر، وكان المنقذ الأكبر للعقل العربي، المبتدع موازين النقد النافذ إلى أعمق الآثار الأدبية والفكرية، ورائداً من أكبر رواد الفكر الحديث ليس على صعيد الأمة العربية وحدها، وإنما على صعيد العالم كله، فاستحق أن يعد ظاهرة فريدة من نوعها في الفكر العربي بأكمله، منذ أقدم العصور حتى الآن، ومما قيل عنه: "إنه ساهم في صياغة العقل العربي المعاصر" كذلك كتبه، وبخاصة "الأيام" الذي قيل عنه: "أجل كتب طه حسين، وأجدرها بالتقدير، مستوحياً المبالغة والشطط في التعبير عن إعجابه، ويضيف هذا القائل المعجب، والمطلع بدراية وتمكن على مؤلفات عميد الأدب العربي: "كتاب قرأناه منذ طويل السنين، ولا نزال نقرؤه كل حين كما لا يزال يقرؤه أبناؤنا من بعدنا، ومن بعدهم أبناء أبنائنا، وأحفاد أحفادنا إلى يوم الدين، فهو عندنا معجزة في كل شيء، انصبّ فيه سياق الكلام حتى بلغ الكتاب حدّ الكمال والتمام.

لن نطيل تاركين بين أيديكم هذا الكتاب ـ آملين أن تجدوا فيه الفائدة والمتعة الأدبية التي تميط اللثام عن أحد أبرز المفكرين والأدباء الذي لم يتوان عن مهاجمة كوكبة من الأدباء والنقاد والمفكرين العرب: أبو الطيب المتنبي، بشار بن برد، ابن خلدون، محمد مندور، لويس عوض، مصطفى صادق الرافعي، حتى الأديبة مي زيادة، لم تكن بمنأى عن سخطه ورضاه وكذلك الأمر بالنسبة للشاعر الشهيد "حافظ إبراهيم".

طه حسين ومصطفى صادق الرافعي[1]

كانت الخصومة التي قامت بين طه حسين أحد ممثلي المدرسة الأدبية الحديثة المنفتحة على الغرب وحضارته وبين مصطفى صادق الرافعي أحد ممثلي المدرسة التقليدية المحافظة من أشهر الخصومات التي أثارت يومئذٍ في الرأي العام العربي والإسلامي اهتماماً وجدلاً كبيرين.

---

(1) ولد مصطفى صادق الرافعي في مصر سنة 1881 من أصل سوري، كان أبوه عالماً دينياً وقاضياً، نشأ الرافعي في بيئةٍ دينية محافظة، ظل أبوه يتعهده بتعاليم الدين إلى أن وثق بأن الروح الإسلامية تمكنت من ابنه. أصيب الرافعي في صغره بحمى أفقدته حاسة السمع تماماً، وكان يكتب ما يراد مخاطبته به، وكان لهذه الآفة تأثير عميق في نفسيته وحياته.

قرأ الرافعي كثيراً وأخذ عن نوابغ العرب في الأدب واللغة والتراث، ودرس ليكون عالماً مشهوراً بعد أن خلقت عاهة الصمم فيه عقدة نقص حملته على التعويض عما فقده من الاتصال الطبيعي بدنيا الناس، بالتبريز في ميدان الحياة بالكفاح في ميدان =

ولا بدّ قبل الخوض في أسباب الخصومة ودوافعها المعلنة أو الخفية من تبيان ما يلي:

كان الرافعي "شموساً، غيوراً، كبير الأثرة والاعتداد بالنفس، لا يُرضيه إلا أن يكون على رأس الجماعة". وكان يعتقد أنه "مِدْرَهُ العربية والقرآن والإسلام" وأنه مسؤول عن الرّد على كلّ ما يوجّه إليه من مطاعن. وكان الرافعي "مجادلاً مصارعاً يخاصم في عنف، ويدخل في معارك الأدب معتمداً على قوة عارضته وتمكنه من ناحية البيان".

وقد رزق الرافعي هذا الأسلوب البليغ من بيئة العلم والفقه والدين التي نشأ فيها حيث تفتحت حياته على كتب الأدب القديم فقرأ متون البلاغة واللغة وانقادت له أزمة البيان والتعبير القوي.

كانت البادرة الأولى للخصومة بين طه حسين والرافعي نشر الأديب حفني ناصف مقالاً في الجريدة عام 1913 يمدح

الأدب والمقارعة في النقد والاشتغال بالنشر والتأليف والانتقال من الموضوعات الغزلية التي أغرم بها في مطلع شبابه إلى الدفاع عن الدين والعروبة والتراث حتى بدت هذه النزعة الإسلامية سمة بارزة في كتابته وتفكيره.

ـ توفي الرافعي سنة 1937.

فيه كتاب الرافعي "حديث القمر" فكتب طه حسين مقالاً جاء فيه أن الرافعي "ألحَّ على حفني ناصف حتى اضطره إلى مدحه في هذا المقال".

وقد سارع الرافعي إلى تكذيب طه حسين في مقال كتبه في الجريدة نفسها التي قدمت له بالعبارة التالية: "جاءنا من حضرة الأديب مصطفى أفندي الرافعي ردّ على الشيخ طه حسين ننشره لفائدته الأدبية بعد حذف المقدمة التي يمنعنا أدب المناظرة عن نشرها". وكان الرافعي رد على نقد طه حسين لكتاب "حديث القمر" وهو النقد الذي اعتذرت الجريدة عن نشره كاملاً جاء فيه:

"كنت متردداً في أمر طه حسين هذا، لأني لا أعرفه، فلم أكن أدري أأحمل خطأه محمل سوء الفهم، أو سوء النية حتى رأيته في مقاله بالأمس يستعين بالكذب أيضاً فزعم حين حدثه الصادق الأمين أني ألححتُ على الأستاذ حفني، بالبرق، ليكتب المقال المذكور".

كان الخصمان، والحق يقال، يتبادلان عبارات الاحترام في الظاهر ويضمران العداء الخفي.

قال الرافعي: "الدكتور طه حسين خصم يُحسب له ألفُ حساب، ...فهو ليس بالضعيف الذي توهمته، وهو في أشياء

كثيرة حقيق بالإعجاب كما هو في غيرها حقيق باللعنة!".

أما رسالة حفني ناصف التي أثارت الضغائن فقد تضمنت كثيراً من المديح والثناء والعبارات المتكلفة والمبالغة المستكرهة حتى ليظن القارئ أن الرسالة وضعت لإغاظة خصوم الرافعي منها قوله:

"وصلتني ــ وصلك الله ببرّه ــ هديتك الجميلة وطرفتك البديعة التي يقل أن يقال في جليلة "حديث القمر"، وما أدراك ما حديثه، لوعة شاكٍ وأنه باكٍ، وتسريح الطبع المخترع في جمال الطبيعة، وإرسال الفكر المبتدع في مجالي الكون البديعة ونظرات الشاعر القدير، في حقائق هذا العالم الكبير". قضيت في قراءته ليلتين منفرداً ألقي على مبانيه ضوء المصباح، وأتبين من معانيه فلق الإصباح، فذهبت مع هذا الحديث كلّ مذهب، وسريت مع الخيال كل مسرى، وطغوت مع الفكر ورسبت وصعدت إلى مناطَ الكواكب في الخضراء وهبطت إلى مسارح الوحش في الغبراء، وفقهت منطق الطير وتسبيح الحيتان، وعلمت صحة قولهم: ليس في الإمكان أبدع مما كان.

فو الذي أجرى الحِكَم على لسانك ومزج السحر ببيانك، لولا أن ثبتني الله لطار لبّي طرباً، واتخذ سبيله في بحر

الإعجاب سرباً، فسبحان الذي صرفك في مُلك الخيال، وأجال طرف ذهنك في كلّ مجال، وملكك أعنّة المعاني والمباني، وخصك من الأساليب بكلّ عجيب!".

ردّ طه حسين على هذا الثناء فقال متهكماً ساخراً: "لا نستطيع أن نحمد كتاب الرافعي.. بمثل ما أثنى عليه الأستاذ حفني ناصف لأنّا لم نفهمه، ولم نهتد إلى أغراضه، ولم نقف على مذهب الكاتب فيه، إما لأن الله عزّ وجلّ قد قضى علينا بالغباوة، وإما لأنه قد قضى على هذا الكتاب بالغموض، لسنا من الذكاء النادر، ولسنا من أهل الغباوة المطلقة بل نحن من أوساط الناس الذين تؤلف لهم الكتب وفيهم تنشر الرسائل، وإليهم تساق الأحاديث، ..ومع ذلك نعلن أنّا لم نفهم كتاب الرافعي...

ولقد اتهمتُ نفسي، بادئة بدءٍ، بالقصور عن فهمه، فشاركت جماعة من أصحابي في قراءته، فلم يكن حظي في الثاني أكثر من حظي في الأول... فلعلّ المرة الثالثة تهدينا إلى جلالة خطر الكتاب!".

إلى هنا وقفت المعركة مؤقتاً إلى أن استأنف طه حسين هجومه على الرافعي حين نشر الشاعر حافظ إبراهيم قصيدة قرّظ فيها كتاب "حديث القمر" مطلعُها:

قــرأت حــديث القمــرْ فـنعمَ الأديـب ونعـم الأثـرْ

بداية هـذا الفتـى الرافعـي نهايـةُ كـلِّ أديـب ظهـرْ

فكتب طه حسين مقالاً في (الجريدة) عنوانه "حافظ وحديث القمر أمدحٌ أم هجاء؟ جاء فيه: "نعم إن حافظاً لم يقرّظ صاحبه بالأمس بل كان أبلغ منيّ في نقده، وإن احتاج من الجهة الخلفية إلى شيءٍ من الصراحة حتى لا ينخدع الجمهور، فأين التقريظ من قوله؟

فعنـــد كتابـــك تحـــني الـــرؤوس

وتعيـــا العقـــول وتصـــفو الفكـــرْ

متى كان الكتاب الذي يعي العقول كتاباً حسناً أو سفراً محموداً؟ لو أننا تركنا لحافظ هذا البيت ونظرنا إلى الأبيات الجميلة التي ردّ علينا بها لكان أمره وطريقه أدعى إلى أن نشهد له بالبراعة فقد قال:

سمعـتُ أناسـاً يعيبونـه بطمس المعاني وبتر الفقرْ

وجاء بسفرٍ ثقيل الظلال حشاهُ بلفظٍ كوخز الإبرْ

فلا هو أرضى بعيد المرام ولا هو أرضى قصير النظر

ألم تر كيف سخَّر قوته الشعرية، وأحسن استخدامها في ذم الكتاب على لساننا؟ أو ما كان ينبغي حينئذٍ أن يكون ردّه علينا أبلغَ من نقدنا وأدلَ على مكانة الكتاب وعلو خطره من كل ما ذهب إليه في أبياته السابقة؟

توقف الرافعي عن الكتابة وسكت طه حسين فكانت "هدنة على دَخَن".

بدأت المعركة الجديدة حين نشر الرافعي كتابه "رسائل الأحزان" فتصدى له طه حسين في جريدة "السياسة" فنقد، في مقالاتٍ عدة طريقة الرافعي في التأليف قال: "نظلمُ الأستاذ الرافعي إذا قلنا إنه لا يشقّ على نفسه في الكتابة والتأليف، بل أنت تنصفه إذا قلت: إنه ينحت كتبه من الصخر، ولكن لا أجد في هذه الجملة ما ينبغي لوصف هذه المشقة، وما لي لا أنبسط معه بعض الشيء فأقول: إنّ كلّ جملة من جمل هذا الكتاب تبعث في نفسي شعوراً قوياً مؤلماً بأن الكاتب يلدها ولادةً، وهو يقاسي من هذه الولادة ما تقاسي الأم من آلام الوضع!".

كان أسلوب الرافعي موضع هجوم أصحاب المدرسة الحديثة التي أنشأها أصحاب "الديوان" العقاد، والمازني، وعبد الرحمن شكري ومن تابعهم وأجمعوا على أنه أسلوب تقليدي

قلّد فيه الرافعي أمراء البيان القدامى وفي طليعتهم الجاحظ وسواه من الأعلام. وقد ردّ الرافعي على أصحاب المدرسة الحديثة في كتابه "تحت راية القرآن" متخذاً الفصاحة والبلاغة مقياساً للإجادة والجودة قال بلهجةٍ فيها شيء من الاحتقار والسّخط "إنَّ هؤلاء المجددين عند أنفسهم كالحجرة، وهم مخذولون بقوة الله، ليس فيهم فصيح بليغ" ثم قال عن خصمه طه حسين متهماً إياه بالكفر والسَّفه والجهل، "كان أشدهم عُراماً وشراسة وحمقاً هو الدكتور طه حسين أستاذ الآداب في الجامعة المصرية. وأن دروسه الأولى في الشعر الجاهلي كفر بالله وسخرية بالناس، فكذّب الأديان وسفه التاريخ وكثر غلطه وجهله، فلم يكن في الطبيعة قوة تعينه على حمل ذلك والقيام به إلا المكابرة واللّجاجة". وتابع الرافعي ينقد طريقة طه حسين في التدريس: "فمرّ يهذي في دروسه، لا هو يثبت الحقيقة الخيالية، ولا يترك الحقيقة الثانية، على أن أستاذ الجامعة إنما يقلّد الهدّامين من جبابرة العقول في أوروبا، وأنه منهم... والرجل متخلف الذهن تستعجم عليه الأساليب الدقيقة ومعانيها، وأكبر ما معه أنه يتحذلق ويتداهى ويتشبّه بالمفكرين ولكن في ثوب الرواية!".

وتابع الرافعي هجومه على من دعاهم بالمجدّدين قال: "هو، أي طه حسين، وأمثاله يسمّون كتّاباً وعلماء، إذا كان لا بدّ لهم من نعتٍ وسمةٍ في طبقات الأمة غير أنهم، على التحقيق، غلطات إنسانية تخرجها الأقدار في شكل علمي أو أدبي لتعارض بها صواباً كاد يهمله الناس فيخشى الناس أن يتحيّف الخطأ صوابهم، أو يذهب به فيستمسكون بحبله ويشدّون عليه".

ظلت هذه الخصومة كامنة تحت الرماد تتحيّن الفرص للظهور إلى أن نشر طه حسين سنة 1926 كتابه "في الشعر الجاهلي" محدثاً ثورة في الرأي العام والأوساط العلمية والدينية فاندلعت، بطبيعة الحال، نار العداوة من جديد بين الاثنين أذكتها عوامل نفسية وشخصية ومزاجية وسياسية، وفيها تجلّت أيضاً أخلاق الأدباء وما تنطوي عليه من عيوب وعاهات كالحسد، والغيرة، والحقد واللجاجة.

وتبيّن بعدئذٍ أنّ من أسبابها عوامل بعيدة عن الأدب واللغة والعقيدة، وبعضها سياسي، وآخر شخصي ومزاجي، وقيل، إنّ السبب الرئيسي يعود إلى أنّ الرافعي كان يطمح في أن يكون أستاذاً في الجامعة المصرية عندما أنشئت فلما رأى أنّ طه حسين سبقه إلى هذا المنصب حقد عليه وأسرّها في نفسه

منتهزاً نشر كتاب "في الشعر الجاهلي" ذلك الكتاب الذي أحدث ثورة في الرأي العام والأوساط العلمية والدينية لما احتواه من عبارات تمسّ بالدين.

وقد بدا طه حسين وكأنه خصم لهذا الشعر يريد أن ينكره وأن ينفي ما ثبت منه "على نحو سلبي مزجَ فيه "بين شيء من الرأي، وشيء من الانفعال وشيء من إثارة الانفعال" فقام العلماء والكتاب بالردّ على ما جاء في الكتاب وتفنيده وإثبات سوء نية مؤلفه وشعوبيته وانصياعه لأفكار أعداء الإسلام. ومن الانتقادات التي وجهت إليه أنه سرق فكرة الشعر الجاهلي من مصدرين: الأول كتاب ألفه مبشر إنكليزي يدعى هاشم العربي الذي وافق على ما قاله طه حسين في قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فقد ادّعى طه حسين أنه استند في دراسته إلى منهج علمي في النقد التزمه الفيلسوف الفرنسي ديكارت الداعي إلى الشك في كل شيء، والتجرد من كل شيء يعلمه من قبل حتى يصل إلى اليقين[1]. وبهذا نادى طه حسين بوجوب إعادة النظر في التاريخ

(1) نقد المازني كتاب "الشعر الجاهلي" بأسلوبه الساخر قال: نشر الدكتور طه حسين كتاباً عن الشعر الجاهلي يشكك في نسبة =

عند القدماء وإخضاع أحكامه للنقد مما قاده إلى أن ينكر "اعتباطاً، ولغير ضرورة منهجية، ودون الاعتماد على وثائق مقنعة قصة سيدنا إبراهيم التي وردت في القرآن الكريم وقال في كثير من التعالي والتحدي والوقاحة العبارة المشهورة: "إن هذا الشعر الذي يقال عنه جاهلي ليس من الجاهلية في شيء.. للتوراة أن تحدثنا عنهما أيضاً، ولكن وردَ هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل ابن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربين فيها. ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى، فهي حديثة العهد، ظهرت قبل الإسلام واستغلها الإسلام لأسباب دينية وسياسية".

أكثر هذا الشعر إلى من نسب إليهم من شعراء وأنا أشك في وجود الدكتور طه حسين نفسه عندما استعرض حياته منذ أن كان يحفظ القرآن في إحدى قرى الصعيد إلى أن أصبح طالباً أزهرياً ثم طالباً في السوربون بباريس فأستاذاً بالجامعة ، وأنه من غير المعقول أن يكون الصعيدي طه حسين هو نفسه الذي أصبح أحد فتيةِ الحيّ اللاتيني بباريس!".

ووجهت إلى طه حسين انتقادات عدة منها أنه سرق فكرة صحة الشعر الجاهلي من مصادر استشراقية ومنها: بحوث المستشرق الألماني نولدكه الذي أشار إلى الشكوك التي يثيرها مظهر الشعر الجاهلي، وجاء بعده المستشرق الألماني آهلوارد فأثار الشكوك ذاتها دون أن يأتي بشيء جديد فقد أعاد للأذهان الشروط السقيمة التي انتشر فيها الشعر الجاهلي قبل التدوين واضعاً المبدأ الآتي: "إنّ القصائد المروية غير موثوق بصحتها سواء من ناحية المؤلف أو ظروف النظم أو ترتيب الأبيات" فوجب والحال هذه "إخضاع كل أثر من القرن السادس وأوائل السابع لفحص دقيق قبل قبوله" وجاء بعد ذلك عدة مستشرقين فتابعوا نولدكه وأهلوارد في موقفهما الحذر من الشعر الجاهلي إلى أن نشر المستشرق الإنكليزي اليهودي (مارغليوث) بحثاً عن الشعر الجاهلي أودعه كتاباً عنوانه "منشأ الشعر العربي" واستعرض موقف القرآن وبالتالي موقف الإسلام من الشعر مشيراً إلى تنافر المعطيات التي أظهرها العلم العربي عن منشأ هذا الشعر[1]، وجاء بعدئذٍ طه حسين فألف

(1) أنكر مرغليوث قصة إبراهيم وإسماعيل، وشك في كثير من الشعر الجاهلي فقال: بدأ المسلمون في حوالي نهاية العصر الأموي

كتابين نشرهما بعد بحث مرغليوث بقليل عنوان الأول "في الشعر الجاهلي" (1926)، والثاني "في الأدب الجاهلي" (1927) لم يضف فيهما على بحث مرغليوث شيئاً جديداً، فقد تبنّى وطوّر إشارات مرغليوث لنفي صحة الشعر الجاهلي مما يحملنا على القول: "إنه لولا مرغليوث لما كان كتاب طه حسين!"[1].

تطورت حركة النقد الأدبي، في النصف الثاني من القرن العشرين إلى نقد تاريخي كان أحد أركانه طه حسين فكتب بحثاً عن أبي العلاء المعري أسماه "ذكرى أبي العلاء"

يدّعون وجود شعر جاهلي عربي، ولم يكتفوا بذلك حتى زعموا أنهم جمعوا الجزء الأعظم منه" وأنهى مرغليوث بحثه قال: "أما الجواب عن الشعر الجاهلي: هل هو يرجع إلى عهد عتيق أو أنه إسلامي؟ فخير ما يسلك الإحجام عنه لأنّ الأدلة الموجودة أمامنا موقعة في حيرة!" وللمستشرق المذكور بحوث ومقالات أدعى فيها التزوير والنحل في الشعر الجاهلي (1916) في مادة (محمد) في دائرة معارف الأديان والعقائد وفي كتابه "محمد" (1905).

(1) قال طه حسين عند اشتداد الحملة عليه: "إن القرآن والتوراة تحدثا عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ولكن العلم لم يثبت وجودهما" ولما سئل عما يقصد بكلمة العلم قال: أقصد أنه ليست هناك آثار ولا حفريات تدل على وجودهما.
(محمود دسوقي: أيام مع طه حسين ص 110).

وتقدم به لنيل الدكتوراه من الجامعة المصرية وانتقل بحكم بحثه إلى نقد الرواة والمؤرخين منتهياً به الفكر إلى الشك في كثير مما حدث به الرواة والمؤرخون. بدأ بتكذيب الرواة، رواة الشعر الجاهلي على وجه الخصوص، وانتهى من ذلك إلى معركة خطيرة خاضها رجال الدين والفقه واللغة والأدب والشعر والسياسة، وقد اتسعت المعركة حتى تجاوزت مصر إلى العالم العربي الإسلامي كله.

ولم يكن طه حسين يتصور، ولا خطر بباله أنه سيقع في مأزق تبعاً لشك خالج قلب أكثر من باحث وناقد حتى في أيام أولئك الشعراء والرواة أنفسهم، لم يستطع طه حسين التخلص من ورطته بل ازداد تورطاً وإمعاناً فيما أخذه عليه خصومه واتهموه بالضلال والكفر والخضوع لسلطان أعداء العرب والمسلمين.

يبدو أن طه حسين هو الذي بدأ في إثارة الهجوم فهو بعد أن ألقى محاضراته في الجامعة المصرية عن الشعر الجاهلي حولها إلى كتاب مما سهل على جمهرة الباحثين في شؤون الأدب واللغة التدخل في هذه المعركة، كان في طليعتهم مصطفى صادق الرافعي الذي هاجم طه حسين ونعته بأقبح الصفات الذميمة التي تبين عن أخلاق الأدباء في ذلك الزمان.

قال: "الرجل متخلّف الذهن، تستعجم عليه الأساليب الدقيقة ومعانيها وأكبر ما معه أن يتحذلق ويتداعى ويتشبّه بالمفكرين".

"إن طه حسين هذا مجموعة أخلاق مضطربة، وأفكار متناقضة وطبائع زائفة وما من عالم في الأرض إلا وأنت واجد آراءه قائمة بمجموع أخلاقه وأكثر مما هي آتية من صفاته العقلية ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان".

"وطه رجل أرسلوا لسانه وقلبه إلى أوروبا فرجع بلسانه وترك قلبه هناك في خرائب روما، .. فيجب أن يكون نفاقه وثرثرته مقصورتين على نفسه".

وقال لطفي جمعة: "كنا نود أن نظن بكتابه خيراً فلم نجد له في الخير محملاً، والحقيقة أن كتابه في الشعر الجاهلي عبارة عن بعض نصوص صحيحة أو مزورة وبعض أكاذيب، وشيء من التهويل وشيء من السياسة وشيء من الخرق، وكثير من الشعوبية والتعصب ضد العرب وعقائدهم، ولم يترك المؤلف نبياً أو صديقاً أو عالماً أو راوية أو شاعراً إلا ابترك في عرضه ابتراكاً ونال من شرفه وسمعته".

وقال عبد المتعال الصعيدي: وهو أول من كشف سرقة طه حسين الفكرة من المبشر الإنكليزي: "لماذا استحل الدكتور هذه السرقة الوضيعة وهو العالم الذي لا يبارى، ولا يليق أن يتهجم على الكتب فيسرق منها، وينسب لنفسه؟ هل يليق يا دكتور أن تنقلب مبشراً تنقل آراء المبشرين التي يمليها عليهم حقدهم في جامعة علمية".

وقال: "بين يديّ الآن كتاب (مقالة عن الأحلام) لجرجيس صال معرّبة عن الإنكليزية بقلم من يدعى هاشماً العربي مطبوعة سنة 1891 يرى فيها ما رأى الدكتور طه في قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وينسبه لنفسه على أنه ابتكار من ابتكاراته، ورأي من آرائه الجديدة، فلماذا استحل الدكتور طه هذه السرقة الفظيعة وهو العالم الذي لا يبارى، ولا يليق أن يتهجم على الكتب فيسرق منها وينسب لنفسه".

وقال محمد فريد وجدي في نقد كتاب "الأدب الجاهلي والمؤلف: رأيتُ منه أخطاء اجتماعية وسيكولوجية وفلسفية لا يصحّ السكوت عليها وألفيت الدكتور لاضطراره إلى تصيد الأسباب التي حملت ذوي النفوس المريضة على اختلاق الشعر ونسبه إلى الجاهليين قد عوّل على كتب المستشرقين وهي

قرارة الأكاذيب ومستنقع المقدمات من كل نوع فجاء كتابه بما حمل في أوزار المغتربين طامساً لمعالم أكبر ثورة اجتماعية حديثة في العالم ألا وهي ظهور الديانة الإسلامية وما استتبع انتشارها من سقوط دول وقيام دول، فبينما علماء الغرب لا يتمالكون أنفسهم من الدّهش من قوة هذه الحركة الاجتماعية التي انبعثت من بلاد العرب فجأة فرجت العالم كله رجّة أذهلته عن كل شيء، يصعب علينا أن نرى واحداً منه يضع كتاباً بالفرض قليل الخطر وهو إثبات أن الشعر الجاهلي مختلق يكون أثره على قارئه أن يحتقر هذه الثورة الكبرى، ويتسخف برجالها الذين أخذوا حظاً من تمثيلها والاضطلاع بأعبائها".

وقال الأمير شكيب أرسلان في نقد الكتاب: "ليس طه حسين في هذا الرأي الفائل والمنطق المقلوب إلا مقلداً لمرغليوث أو لغيره من الأوروبيين بسائق عقيدة سخيفة فاشية في الشرق وهي أن الأوروبي لا يخطئ أبداً، وأنه من حيث اخترع الأوربي سكة الحديد والغواصة والطيارة والسيارة صار يفهم أحسن مما يفهم سيبويه والخليل بن أحمد... إننا لا ندّعي كون الشرقيين أعلم من الغربيين... ولكن الحقيقة القائلة هي أن الشرقي يتهم أخاه الشرقي في نقله، ويسفهه في عقله، ويحتقر

رأيه... حتى إذا اطّلع على تأليف أوروبي ولو محشواً بالهذيان تلقى ما فيه نازلاً من السماء، وعضّ عليه بالنواجذ وأبى أن يرتاب فيه أو يحاكمه".

"إني لا ألوم الدكتور طه حسين الذي قصاراه أن يسرق رأياً لمستشرق أوروبي خالف به جمهور المستشرقين فضلاً عن علماء العرب وأن ينتحل هذا الرأي لنفسه متبجحاً به".

وقال محمد عبد المطلب: "سخِطتُ وأزوررتُ لأني أجد ضَعْفاً في أسلوبه العربي وضعف تأليف وخطأ في اللغة وقواعد الإعراب، أما ضعف الأسلوب فإنه يجيئك بالمعنى القليل الهزيل في اللفظ الكثير، والتركيب المملول. على أني حائر في الحكمة التي يرمي إليها بافتتاحه القول مغيظاً محنقاً يتصور الخصومة ولا خصومة، ويمعن في اللؤم وربما كان هو الحليم".

وقال "وسخطتُ وأزوررت إذ رأيتُ أكبر أستاذٍ في أكبر معاهد مصر يتردد بين التناقض في الرأي والخطأ الفاحش في الفن. فأما قصور اللفظ فإني وجدت الدكتور يمنح في كل دعوى الشك والتشكيك عجزاً عن الدليل القويم ولا ينتج من المقدمات في أدلته إلاّ العقيم".

وقال عبد الحميد سعيد: "عرف هذا الرجل بمصادمة آرائه لنصوص القرآن الكريم والعقائد الدينية، وقد أظهر

عداوة للإسلام في كثير من تعاليمه وآثاره منها كتاب (الشعر الجاهلي)... إن السموم التي أراد الدكتور أن ينفثها في كتابه لا تزال ماثلة في كثير من فصوله ومباحثه".

يبدو أن الحركة النقدية التي أثارها كتاب "الشعر الجاهلي" بقيت محصورة في مصر دون سائر البلاد العربية، فقد تصدّى كبار الكتاب والباحثين لنقد الكتاب علمياً وتحليلياً مركزين على ضعف المؤلف وسوء نيته، وتهافت أسلوبه، بيد أنه من الطريف أن يرتفع صوت واحد يدلي صاحبه برأيه في هذا المجال ألا وهو الكاتب اللبناني رئيف خوري[1] نشره في جريدة المكشوف البيروتية (1939) بعد ثلاثة عشر عاماً من ظهور الكتاب ناقداً طه حسين وأسلوبه في السعي وراء الشهرة والزعامة الأدبية قال: "الذي يبدو لي أن حياة الدكتور طه حسين الأدبية حتى الآن تقع في قسمين

(1) أديب لبناني (1913 ـ 1967) مارس كتابة القصة والرواية والمسرحية والنقد الأدبي، وكتب موضوعات سياسية وفكرية وفلسفية واجتماعية وهو أحد مؤسسي مجلة (الطريق) ذات الاتجاه الاشتراكي. جرت له مناقشات مع طه حسين حول موضوع: لمن يكتب الأديب للعامة أم للخاصة؟
فكان رأيه "للكافة"!.

بيّنين: الأول هو ما يجوز أن ندعوه دور الجرأة على الأساليب والآراء القديمة وهي جرأة نلمس فيها حب الدهش والمفاجأة والظهور أكثر من الحرص المتزن على إبراز الحقيقة.

في هذا الدور ألف كتاباً في "الشعر الجاهلي" والحق أن الكتاب بحد ذاته يسير الابتكار، فالمستشرقون قبل الدكتور طه حسين كتبوا ما كتب بصورة أقوى علماً، ثم إن كون الشعر الجاهلي منحولاً أو غير منحول قضية قليلاً ما هي خطيرة.. ولكن طارئاً طرأ فخرج الدكتور طه حسين من هذا الدور الأول من حياته إلى دوره الثاني اليوم. هناك كثيرون من الكتاب في مطلع حياتهم الأدبية خلعوا على أنفسهم جبّة الجرأة، لماذا؟ لأن الجرأة في الكتاب، كما هي في غيرهم، فضيلة.

أقول: "إن كثيراً من الكتاب يخلعون على أنفسهم جبّة الجرأة من أجل هذا المورد، مورد الشهرة فإذا ظفر أولئك الكتاب بما يطمعون فيه عمدوا إلى طرح جبّة الجرأة منهم وهم يعتقدون أن سوقهم نافقة".

"أجل إن كثيرين من الكتاب يصيرون في دور من أدوارهم إلى استغباء القراء أو استحمارهم (إذا صح الاشتقاق)".

طه حسين والمنفلوطي[1]

كان طه حسين استهل حياته الأدبية بمهاجمة الكاتب مصطفى لطفي المنفلوطي التماساً للشهرة وذيوع الصيت بين الجماهير، وكان المنفلوطي عقب الحرب العالمية الأولى، علماً من أعلام الأدب الحديث، عرفت آثاره سيرورة ورواجاً كبيرين وأثرت كتاباته في أدباء زمانه كالرافعي والزيات وطه حسين

(1) ولد المنفلوطي في قرية منفلوط من أعمال مديرية أسيوط سنة 1876 تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن في قريته، ثم رحل إلى الأزهر فلم تطل إقامته فيه لعجزه عن مطالعة كتب الأزهر ومعاناة دروسه. اتصل المنفلوطي بالشيخ محمد عبده وتأثر بشخصيته وعلمه. بدأ المنفلوطي في بداية شبابه منذ 1907 ينشر مقالات أسبوعية عنوانها (النظرات) كانت سبب شهرته، وله مؤلفات عدة منها ما هو من إنشائه ومنها ما هو مترجم عن الفرنسية ولم يكن يحسنها، فكانت تترجم له فيتولى وضعها في قالب إنشائي. له الكتب (النظرات)، و(العبرات) و(في سبيل التاج) و(الشاعر أوسيرانودي برجراك) و(مجدولين) و(مختارات المنفلوطي). ـ توفي سنة 1924.

والبشري وغيرهم، ولم يبق في أوساط الشباب والكهول شاب أو فتاة إلا وأدام النظر في (النظرات) وانحدرت على خده عبرة من قراءة "العبرات" أو تقطع قلبه أسى وحسرة على الفضيلة المعذبة في (بول وفرجيني) بلْهَ"ماجدولين" و"الشاعر" و"في سبيل التاج".

عرف مصطفى لطفي المنفلوطي وكتبه، المنشأة والمترجمة على السواء، رواجاً وانتشاراً منقطعي النظير، وذلك بأن المنفلوطي أحدث في الفترة التالية لنهاية الحرب العالمية الأولى أثراً قوياً أسماه بعضهم (عهد المنفلوطي) فقد أقبل شباب جيله على قراءتها فحفظوا فقراتٍ وصفحات منها وطبعت بأسلوبها أساليبهم، وشاعت ألفاظها وعباراتها فيما يكتبون، فصاغها بلغة عربية صحيحة سلسة سهلة خالية من المحسنات وبعيدة عن السجع وقريبة من الازدواج، وأسلوبٍ فيه رقة ووضوح تسوده روح من الحزن، فاستطاب الشباب العرب هذا النوع الإنشائي الجديد وكانوا حديثي العهد بنهاية حرب عالمية غمرتها خيبة الآمال في الحرية والقومية. أخذت اللغة العربية منذئذٍ بتجديد شبابها وسعى كتابها إلى جعلها أداة تعبير وليست مجالاً لإظهار المهارة البيانية ولا ميداناً للعب بالألفاظ والأسجاع.

ومن النصفة القول: "إن المنفلوطي على جلال قدره وعظيم فضله لم يكن وصافاً بارعاً لخلجات النفس الإنسانية، ولا محللاً عميقاً للعلاقات البشرية إذ لم يكن هذا عنصراً من عناصر الرسالة التي قام بها، فقد وصف كثيراً من نفوس الناس البسطاء ومناظر ووقائع بؤسهم وشقائهم وتصدى بصورة واقعية وسطحية لدوافع وأسباب أزماتهم ومصائبهم ومآسيهم، ولم تكن ثقافته ولا دراسته ولا مزاجه مما يُعينه على الوصول في هذا المضمار إلى أشياء جديرة بالاعتبار.

طه حسين كان مغرماً بالمنفلوطي كلّ الغرام مقبلاً عليه كل الإقبال وكانت آثاره "تبلغ من قلبه مبلغاً عظيماً ولكن طه حسين النزّاع إلى المجد والشهرة وتأكيد الذات، والتبريز، وإثارة الضجيج، واغتنام الفرص واللجوء إلى كل الوسائل للوصول إلى هدفه حتى ولو خالف النّمط السلوكي والقاعدة الخلقية، عمد بعد شهر على إعجابه بالمنفلوطي وإكبار أدبه، على مهاجمته هجوماً عنيفاً في مقالات عنوانها "نظرة في النظرات" أطال فيها عليه لسانه متهماً إياه "بالجهل، والسرقة الأدبية، والتغرير بالقراء وتضليلهم" وأنه "شغوف بذاتِ غيره ومنكر لذات نفسه" وأنه "بعيد عن الحقيقة ويتوخى اصطناع

الخيـال للوصـول إلى غايتـه" وأن للمنفلـوطي "ألفاظـاً ومعـاني كان مولعاً بها فلا تزال تتردّد في كتابه حتى تمجّها الأسماع وتعافها الطباع "وأنه "في استعاراته وتشبيهاته التي أولع بها جاء كلامه رثاً، غثاً، وأسلوبه ساقطاً مبتذلاً" وأنه "يرى الرأي يعتقد أنه الحق ثم لا يأنف أن يبيعه بثمن بخس".

ثم أخذ يتعقب هفوات المنفلوطي اللغوية والصرفية والنحوية، ولكن المنفلوطي لم يردّ عليه، فأوكل ذلك إلى مريديه وعشاق أدبه، فكتب أحدهم يردّ على طه حسين رداً عنيفاً قال: "لو كانت أخلاق المنفلوطي كما زعمت لقابلك بمثل ما تكتب، وأنت تعلم، كما يعلم غيرك، أن قلمه لا يضيق عن الكتابة، ولكن قلماً وقف نفسه على نشر الفضيلة، وتسجيل الحقائق أرفع من أن يجاريك في وقاحتك وسوء أدبك، وإن نفساً عالية كنفس صاحب "النظرات" أعلى من أن تنازلك في ميادين السفاهة، فكن في مأمن منه، فإنه لن يؤاخذك بما تكتبه "أيها الكاتب.. ظننت نفسك شيئاً مذكوراً فلا تعجب إذا أصابك من غيرك ما لم تكن لتنتظره، فإن الغرور بالنفس مؤدّ إلى المهالك".

تراجع طه حسين عن آرائه بعد وفاة المنفلوطي وقال: "إنه فعل ذلك بعد أن تحول في أسلوب النقد الذي يتصل بالألفاظ والعبارات إلى النقد الموضوعي "وقال: "ولست الآن نادماً على شيء ندمي على أنني كتبتُ "نظرات في النظرات"[1].

وكان المازني سبقه في هذا الندم عندما قال: "أما النقد (نقده للمنفلوطي) فقد أسقطناه من جملة ما كتبنا غير آسفين على إسقاطه، فقد كانت مما أغرت به حماقة الشباب".

(1) قيل يومئذٍ إن الكاتب صادق عنبر كان يكتب لطه حسين المقالات في نقد "النظرات" للمنفلوطي، وتفصيل الخبر أنه لما ظهرت الطبعة الأولى من كتاب "النظرات" وجد فيها رجال الحزب الوطني فقراتٍ آلمتهم، كان صادق عنبر من محرري جريدتهم فدفعوا إليه كتاب النظرات وطلبوا إليه أن يقرأ في كل يوم بضع صفحات فيعرض ما فيها من المفردات والتراكيب على نصوص العربية وقواعدها وأساليبها ويضع إشاراتٍ على ما ينتقده منها ويكتب فيما يلي ذلك من الهامش وجوه الصواب بأدلتها.. وكانت الصفحات تعطى يوماً بعد يوم إلى طه حسين فيفرغها في فصول كان الناس "يغتفرون ما فيها من سلاطة طه حسين وهذره لما فيها من علم صادق عنبر وأدبه" وثمة رأي آخر يقول إن صادق عنبر كان يعلق لطه حسين على صفحات الكتاب فيقر هذه التعليقات "ليصوغ المقالات النقدية معتمداً على العناصر التي كتبها عنبر".

طه حسين ومحمّد حسين هيكل[1]

من غرائب أخلاق الأدباء تضحيتهم بالصداقة والإيغال في نكرانها حتى العداء الخفي أو المعلن. فقد جمعت بين طه

(1) محمد حسين هيكل (1888 ـ 1956) كاتب سياسي وصحفي ومؤرخ أدبي. ولد في إحدى قرى مصر. درس الحقوق في القاهرة وباريس وفيها نال شهادة الدكتوراه سنة 1912. تولى هيكل تحرير جريدة السياسة اليومية والأسبوعية التي أنشأها الأحرار الدستوريون وانضم إليه كبار الكتاب يومئذٍ منهم طه حسين العائد هو الآخر من باريس. كان هيكل من أركان حزب الأحرار الدستوريين المناوئ لحزب الوفد، تولى الوزارة مرتين ورئاسة مجلس النواب. كان هيكل ذا أثر بعيد في الصحافة الأدبية والفكرية في عالم العروبة في مختلف أقطاره، وكانت السياسة الأسبوعية "ثمرة من ثمار جهده وعمله" كانت مدرسة ذات أصداء بعيدة في الأدب العربي والسياسي والنقدي والفني واتصف أسلوبه بالسهولة والوضوح وقد أجمع من كتبوا عنه أنه كان متمكناً من اللغة العربية.
لمحمد حسين هيكل آثار عديدة منها رواية "زينب" أول رواية مصرية في الأدب العربي الحديث.

حسين ومحمد حسين هيكل صداقة ضخمة ظهرت آثارها في جريدتي "السياسة" اليومية والأسبوعية[1] (1922 ــ 1933) فكانا يتبادلان النقد المشوب بالثناء والتقريظ عندما يصدر أحدهما كتاباً. بيد أن هذه الصداقة لم يُكتب لها الدوام منذ أن ترك طه حسين حزب "الأحرار الدستوريين" الذي ينتسب إليه هيكل، وانضم إلى حزب "الوفد" ثم جاء عهد كان فيه طه حسين مع الوفد، فهاجم صديقه القديم هجوماً عنيفاً في مقالاتٍ جُمعت فيما بعد في كتاب "مرآة الضمير الحديث" وقد اشتدت الخصومة بين الاثنين بعد صدور كتاب "جان جاك روسو" لهيكل، فسارع طه حسين إلى نقد الكتاب والمؤلف فقال: "يجب أن يكون هيكل شديد الالتواء على النقاد،

(1) وصف المستشرق "جب" مدرسة السياسة في دراسة له عام 1933: "كان الدكتور هيكل يعمل الروية والفطنة في ترويج الرأي العام إلى مستوى الثقافة الأدبية ولكن طه حسين لم يقتف أثر زميله، ولم يزاحمه في سبيل التؤدة والفطنة بل هاجم الرأي العام المصري بطريقة التشكك الفلسفي والرأي العام غير مستعد لها وسار يقطع المراحل من إنكار إلى إنكار وذلك في كتابه "حديث الأربعاء" ثم أتبعه بكتاب "في الشعر الجاهلي" ويمتاز إنشاؤه بطبعته الخطابية لأنه لم يكتبه وإنما ألقاه إلقاءً".

مسرفاً في ازدراء القرّاء وغالياً في الاقتناع بأنه وحده موفق للخير حين يفكر وحين يعمل، لا أعرف كتاباً علمياً أو أدبياً أرادأ طبعاً من كتاب هيكل: بل لا أعرف كتاباً علمياً أو أدبياً بلغ فيه الإهمال والفتور ما بلغاه في كتاب هيكل: طبع رديء مفعم بالأغلاط المنكرة، وورق رديء يصرفُ القارئ عن أن ينظر في الكتاب". ولكن هذا النقد لم يحل دون وقوع طه في تناقض عجيب فقال عمن اتهمه بالضعف في اللغة العربية، وعجزه عن تأليفه كتبه، واستئجاره من يكتبها له عاد فمدح إجادة صاحبه وتمكنه من اللغة العربية فقال: "والناس جميعاً يعلمون أن هيكلاً على امتيازه الفنّي وبراعته الكتابية يُحسن لغته العربية ويُتقنها ويتصرف بها كما يجب". أما قول طه حسين بأن حسين هيكل لم يكن "يؤلف كتبه، وإنما كان يكتبها له أناس آخرون ثم ينسبها لنفسه" فهذا محض كذب وافتراء فإن هيكلاً رأس تحرير جريدة السياسة الأسبوعية، جريدة الفكر والأدب والفن، وكانت مصدراً ثقافياً عالياً استمتعت به يومئذٍ أجيال العروبة، هذا بالإضافة إلى مؤلفاته العديدة: "في أوقات الفراغ" و"ولدي" و"تراجم شرقية وغربية" و"ثورة الأدب" و"قصة زينب" القصة الأولى في الأدب العربي المصري الحديث. ناهيك من كتبه الإسلامية: كتاب "محمد"

عليه الصلاة والسلام، و"في منزل الوحي" و"الصديق أبو بكر" و"الفاروق عمر" التي مهدت الطريق لظهور كتب العبقريات للعقاد، وكتاب "محمد" لتوفيق الحكيم وغيرها، أيعقل بعد هذا أن يكتب الناس لهيكل كتبه؟.

إن هكيلاً هذا، والحق يقال، لم يخلُ من العيوب وغيرها من الآفات النفسية التي انتشرت بين الكتاب الكبار بدءاً من التواء السلوك وانتهاء بسيطرة الأثرة وحبّ الذات. فقد كان هيكل شديد الاحتفاء والإعجاب بأمير الشعراء شوقي حتى أنه أعلن مرة في جريدة السياسة أن كلّ قصيدة تنشر لشوقي في "السياسة" يدفع المشرفون عليها إلى الجمعيات الخيرية 50 جنيهاً"!.

بيد أن هذا الإعجاب لم يدم طويلاً فهو كغيره من المواقف الخادعة أو المخدوعة معرَّض لهزات المنافع والمصالح المعلنة أو المكتومة.

كتب حسين هيكل مقدمة "الشوقيات" سنة 1925 وأصدر عدداً خاصاً في "السياسة" الأسبوعية بمناسبة تكريم شوقي، فمن أقواله في مقدمة الشوقيات مادحاً شوقياً: "شاعر مطبوع يصل من الشعر إلى علياء سمواته" وقال: "إنه مؤمن عامرُ النفس بالإيمان، مسلم يقدّس إخوة المسلمين، حكيمٌ

يـرى الحكمـة مـلاذ الحيـاة وقوامهـا ، متسـامح تسـع نفسـه الإنسـانية ، وتسـع معهـا الوجـود كلـه" وقـال: "نـرى أن الأمـم لا تقوم على دعامة غير دعامة الأخـلاق، وسـائر أدوات الحضـارة. تصـلح الأمـة لكنهـا جميعـاً لا فائـدة مـن رقيهـا وغزارتهـا إذا انحطـت أخـلاق الأمـة". وقـال مشـيراً إلى أخلاقيـة شـوقي في شـعره: "للأخـلاق عنـده المحـل الأول وكـثير مـن أبياتـه في هـذا المعنى وقد أصبح مثلاً يتداوله كلّ كاتب وكلّ أستاذ وكلّ تلميذ ، ويردده الجميع على أنه الحكمة لا يأتيها باطل من بين يديها ولا من خلفها ، أو لا ترى قوله:

وإنّمـــا الأمـــمُ الأخـــلاقُ مـــا بقيـــت

فـــإنْ هُمـــو ذهبـــت أخلاقهـــم ذهبـــوا

وقـد بلـغ مـن تـواتره علـى الألسـن أن أصـبح الكـثيرون لا يعرفـون إن كـان لشـوقي أو لشـعراء العصـور الزاهـرة في أيـام العرب؟.

لم يلبث هـذا التمجيـد أن تحـول إلى فضيحة ، فقـد فاجـأ هيكل قراء جريدته بمقال حمل فيه على شوقي لسبب تافه ، وهـو أن شـوقياً لفّـق أخبـاراً بـالطعن علـى العـدد الخـاص الـذي صدر في جريدة السياسة لتكريمه ، أي تكريم شوقي، فقال:

"علمتُ أن شوقي بك لفّق بعض أخبار عن "السياسة" ومحرريها، وانطلق وأطلق جماعة من صبيانه يُذيعونها في القهاوي والطرقات فأصغرت ذلك منه، وأعرضتُ عنه وأبيتُ أن أحدّثه فيه لكيلا أحرجه بأن أصارحه بهذا التدلّي إلى حضيض الخُلق".

واسترسل هيكل يقول: ولكنه لم يقف عند رواية أخباره الملفقة وإرسالها على لسان صبيانه، بل جرت السفاهة على صفحات (نشرةٍ) يُنفق عليها لتصفق له، ويدبّر تحريرها باسم مستعار لتنال من أعراض من يسميهم خصومه، جرت بالطعن في أعضاء اللجنة التي كرمته باتهام أعضائها جميعاً بأنهم أرادوا أن "يتخذوا من تكريمه أداة للنصب والظهور ويتخذوا منها إعلاناً عن أنفسهم وعن سِلعهم البائرة وصحفهم الخاملة".

ويقول زكي مبارك: "إن شوقياً دعاه لكتابة مقدمة أدبية إلى جانب مقدمة هيكل التاريخية فأجابه بخطاب فيه: "إني لا أستطيع كتابة المقدمة التي ينتظرها أمير الشعراء لأني أخشى أن أقول فيها كلاماً يصدّني عن نقده إن رأيتُ في أشعاره المقبلة ما يوجب الانتقاد".

وأضاف زكي مبارك: "وفي عصرية اليوم الذي كتبتُ فيه ذلك الخطاب قابلتُ الدكتور طه حسين وأخبرته بما وقع

فغضب أشد الغضب وقال: "ليتك استشرتني قبل أن تصنع ما صنعت ألا تعرف أنك أضعتَ على نفسك فرصة من فرص التشريف؟ لو طلب مني شوقي ما طلب منك ـ وأنا خصمُه ـ لا ستجبتُ بلا تردد"!...

طه حسين وتوفيق الحكيم[1]

لعل المعركة الأدبية التي وقعت بين طه حسين وتوفيق الحكيم من الأمثلة المعبرة عن نفسية الأدباء، تحولت بها الصداقة إلى خصومة، والمدح والثناء، إلى خلاف وسجال. كان توفيق الحكيم نائباً في الريف قدمه صديقه حسين فوزي إلى طه حسين، وكان توفيق نشر يومئذٍ قصة "أهل

(1) ولد توفيق الحكيم في مدينة الإسكندرية سنة 1898 أتم دراسته الثانوية ثم درس الحقوق وسافر إلى فرنسا لنيل الدكتوراه في القانون. عاد إلى مصر وعيّن وكيلاً للنيابة ألف أثناءها روايته المشهورة "يوميات نائب في الأرياف" ترك الحكيم تراثاً ضخماً في الأدب المعاصر بين مسرحيات طويلة وقصيرة وروايات طويلة وقصص قصيرة ومقالات وخواطر. ومن كتبه المتداولة المشهورة: مسرحيات "شهرزاد" و"أهل الكهف" و"محمد" و"بيغماليون" و"أوديب الملك" و"السلطان الحائر" و"العيش الهادئ" و"أنشودة الموت" و"الساحرة" و"أريد أن أقتل" و"يا طالع الشجرة" و"حمار الحكيم". ومنها : روايته "عودة الروح وهي عن ثورة 1919 استلهم حوادثها من=

الكهف" وعندها أطلق طه حسين رأيه في توفيق الحكيم وقال عنه: "إنه أنشأ في الأدب فناً جديداً ولم يلبث الموقف أن تحول بين الكاتبين على الصورة التي ذكرها طه حسين في قصة "الأديب الحائر"، ولكن الصفاء عاد مرة أخرى بين الأديبين فقد التقيا في صيف 1936 في قرية من قرى الألب في

روح مصر الفرعونية، ومنها "عصفور من الشرق" وهي مذكرات شخصية أثناء وجوده في باريس.

أثار الحكيم كثيراً من الجدل حول دوره الأدبي وأعماله المسرحية والروائية ومواقفه السياسية المتقلبة والمتناقضة البعيدة عن المثالية الأدبية التي نادى بها. وقد تم الرد عليه بكتب كثيرة مثيرة.

نشر توفيق الحكيم آخر مقال له وهو يعاني وطأة الشيخوخة وما تجره من عجز ويأس قال فيه: "لقد تبين أن كلّ شيء في هذا المجتمع ارتفع إلا شيئين الكتابة والعقل، بل إن الأمر وصل إلى أنه كلما اتسع العقل فرغ الجيب. فكلّ ما فعلتُ فيما مضى لم يكن مثمراً" وقد وصف نفسه يومئذٍ وهو في آخر أيامه قال: "إنه متعطل بالعمر، إذ لم يعد لكتاباته وأعماله الأدبية من تأثير لأن الحياة أصبحت شديدة التغير والتقلب. وقال في عيد ميلاده الثامن والثمانين وسط جمهور من الكتاب والأدباء: "لقد أسلمتُ أمري إلى الله، أنا شخصياً أعتقد أن طول العمر ليس دعوةَ سليمة، المهم الصحة ليكون الإنسان قادراً على الحياة، ولكن إذا كان عاجزاً عن الحركة فالوجود ليست له أيّ فائدة. إن كل ما أتمناه أن تكون النهاية فيها رحمة". توفي الحكيم سنة 1987.

فرنسا وكتبا معاً "القصر المسحور" ويبدو أن هذه الصداقة لم تكن متينة العرى فسرعان ما انتقد طه حسين مسرحية توفيق "محمد" عليه الصلاة والسلام ولم يكن ثمة ما يُنبئ بهذا الهجوم إذ كان الحكيم معجباً بطه حسين، وكتب اعترافاً قال فيه: "إن رعاية الدكتور طه أثمن ما منحني القدّيسون الثلاثة من كنوز، إن صداقته التي أطمح إليها هي مفتاح عملي الأدبي في المستقبل، إنه ليشق عليّ أن يمضي الأسبوع ولا ألقى الدكتور طه، فقد وجدت في حديثه الجميل زاداً روحياً لا غنى لي عنه".

بدأ طه حسين هجومه على آثار توفيق الحكيم بمسرحية "محمد" عليه الصلاة والسلام وقال عنها "كتاب سخيف" وإن الحكيم أفسد القصة إفساداً شنيعاً كأشنع ما يكون الإفساد. وإن ما ينشره في الأهرام "لا يعجبني وإن على الحكيم أن يقرأ فلسفةً أكثر ليستفيد ويكتب أفضل مما كتب" وقال عن مسرحية "شهرزاد: لا تُفهم ولا تقرأ ولا تُشاهد ولا يحضرها"، ولكن سرعان ما تغير رأي طه حسين فأصبحت مسرحية شهرزاد فناً جديداً في أدبنا الحديث لم يُسبق توفيق إلى مثله ولا إلى قريب منه...

ثم يستدرك طه حسين... ولكن في القصة عيبان أحدهما يسؤني حقاً، وما ألوم فيه الكاتب فلن أؤدي إليه حقه من اللوم وهو هذا الخطأ المنكر في اللغة. وهذا الخطأ الذي لا ينبغي أن يتورط فيه كاتب فضلاً عن كاتب كالأستاذ توفيق الحكيم ولا يُراد في أن أكون قاضياً عنيفاً وأن أطلب إلى الأستاذ في شدة أن يلغي طبعة هذه القصة وأن يعيد طبعها مرة أخرى بعد أن يصلح ما فيها من الأغلاط".

أما العيبُ الثاني فله خطره ولكنه مع ذلك يسير، هذا العيب يتصل بالتمثيل نفسه فقد غلبت الفلسفة، وغلب الشعر على الكاتب حتى نسي أن للنظارة حقوقاً يجب أن تراعى، فأطال في بعض المواضع وكان يجب أن يوجز وفصّل في بعض المواضع وكان يجب أن يُجمل".

"ولست أزعم أنها شيء يقرب من المثل الأعلى في القصص التمثيلية ولكني أزعم أنها أثر فني متقن ممتع، دقيق الصنع، بارع الصورة، حقيق بالبقاء والبقاء الطويل... ليقل الغاضبون على توفيق والحاسدون له ما يقولون فالأدب العربي الحديث لم يعرف مثل هذا الفن من الإنشاء... بل ما لي أقتصد، فالأدب العربي الحديث لم يعرف مثل هذا الفن وأنا أرجو ألا يغترّ توفيق بهذا الثناء الذي أهديه إليه صادقاً مخلصاً، وأود لو

دفعه هذا الثناء إلى العناية بفنه والتكميل لما ينقصه من الأدوات، فهو في حاجة إلى كثير من الجد والعناء، ومن الدرس والتحصيل فهو في حاجة إلى أن يكثر من قراءة الفلسفة ليقول عن علم ويفكر على هدى، وهو في حاجة إلى أن يعنى باللغة ويتقنها ليستقيم التعبير عما يعرض من الخواطر والآراء".

استمر طه حسين في كيل المديح وإبداء النصائح لتوفيق الحكيم، على الطريقة الطحسنية في المبالغة والمجاملة المصطنعة والترداد والتكرار والتعبير عما يصطرع في نفسه من حسد ومرارة عند ظهور "قصة الكهف" فقال عنها: "إنها حادث ذو خطر لا أقول في الأدب المصري العربي وحده بل في الأدب العربي كله، وأقول هذا في غير تحفظ ولا احتياط وأقول هذا مغتبطاً به مبتهجاً له وأي محب للأدب العربي لا يغتبط ولا يبتهج حين يستطيع أن يقول، وهو واثق مما يقول: "إنّ فناً نشأ فيه، وأضيف إليه، وأن باباً جديداً قد فتح للكتاب وأصبحوا قادرين على أن يلجوه وينتهوا منه إلى آمادٍ بعيدة رفيعة ما كنا نقدر أنهم يستطيعون أن يفكروا فيها الآن، نعم أن هذه القصة حادث ذو خطر يؤرخ في الأدب العربي عصراً جديداً"...

كانت نهاية هذه المساجلة بين الأديبين الكبيرين والتي كثرت فيها المداعبة والتلطف الكاذب، والمديح المبطن بالخداع وكظم الغيظ أن ردّ توفيق على هذا كله برسالة قال فيها: "قرأتُ مقالك عن "شهرزاد" وما أحسبني تلاقينا فيه عند رأي. فأما قولك إنّي أدخلت في الأدب العربي فناً جديداً، وأتيت بحدث لم يسبقني إليه أحد فهذا إسرافٌ سبق لي أن أشرت إليه في خطاب مني إليك عن أدب الجاحظ ذكرتُ فيه يومئذٍ أنّ للجاحظ ملكة في إنشاء الحوار تذكرنا ببعض كتاب المسرح من الغربيين، فما أنا بمبتدعٍ إذاً، وإنما أحد السائرين في طريق شقه الشرق، وأما نصيب قصصي من البقاء فلستُ أعتقد أن لناقدٍ معاصر حقّ الجزم به، وما بلغتُ من البساطة حتى تصديق ناقد يتكلم في هذا الزمن وحده هو الكفيل بالحُكم للأعمال بالبقاء، فأنا كما ترى لا أسمح لنفسي بقبول مثل هذا الثناء. كذلك لست أسمح لأحدٍ أن يخاطبني بلسان التشجيع، فما أنا بحاجة إلى ذلك، فإني منذ أمدٍ بعيد أعرف ماذا أصنع، ولقد أنفقت الأعوام أراجع ما أكتب قبل أن أنشر وأذيع، كما أني لستُ في حاجة إلى من يملي عليّ ناقد قراءة بعينها فإني منذ زمن طويل أعرف ماذا أقرأ، وما أخالك تجهل أني قرأت في الفلسفة القديمة والحديثة وحدها ما لا يقلّ عما قرأت أنت، وما أحسبك كذلك تجهل أني

أعرفُ الناس بما عندي من نقص، وأعلم الناس بما أحتاج إليه من أدوات فأرجو منك أن تصحح موقفي أمام الناس وألا تضطرني إلى أن أتولى ذلك بنفسي[1].

وختم الحكيم كلامه قائلاً: "لم نسمع في غير مصر أن الناقد إذا أثنى على كتاب حسِبَ أنه تفضل على مؤلفه، ورفع شأنه من الحضيض، وأن على المؤلف واجباً مقدساً هو أن يشتري من فوره سبحة لكيلا ينسى أن يسبح بحمد الناقد آناء الليل وأطراف النهار".

---

(1) لم ينجُ توفيق الحكيم، على جلال قدره ونبوغه الأدبي من تهمة السرقة والاقتباس، كما اتّهم زميله المازني، فقد كتب حبيب الزحلاوي سنة 1935 في جريدة "روز اليوسف" أن قصة "أهل الكهف" لتوفيق الحكيم مقتبسة لكاتب أمريكي هو إدوار بلامي Bellamy وعنوان القصة الالتفات إلى الوراء (Looking Buekwerd 1898) التي صدرت عام 1898. وقال الزحلاوي في كتابه (شيوخ الأدب الحديث) إنه قرأ أهل الكهف مسوّدة قبل تنقيتها من العبارات العامية".
وكتب رشدي صالح في جريدة الجمهورية "إن كتاب (حمار الحكيم) مأخوذ من كتاب الحمار الإسباني (جيمينيز) وقد تدخل العقاد في هذا الاتهام بعد دراسة هذه القصة وقال إنّ وجه الاقتباس ضعيف، ولكنه ليس معدوماً!..".

رد طه حسين على توفيق الحكيم برسالة أعلن فيها القطيعة قال: "أحب أن يعلم توفيق أنني لن أرد عليه بعد الآن، ولن أحفل به إلا يوم يخرج لنا كتاباً نقرؤه، ويومئذٍ سأعلن رأيي في الكتاب سواء رضي توفيق أم سخط".

سئل طه حسين عن مخاصمته توفيق الحكيم فأجاب: "أبداً، لقد استقبلته في المجمع اللغوي، ونفيت عنه حكاية البخل التي لصقت به، وتحدثت عنه حديث المعجب بفنه وأدبه... كان الرجل يستقبلني كلّ عام عند عودتي من أوروبا، وفي هذا اليوم كان يغديني أنا وزوجتي وابني مؤنس، هل ترى الذي يولم لكل هذا بخيلاً؟!".

ويبدو أن طه حسين كان حريصاً بدافع انتقامي على التشهير ببخل الحكيم وفضحه في الملأ، ففي سنة 1954 انتخب توفيق الحكيم عضواً عاملاً في المجمع اللغوي وتولى طه حسين استقباله فأشار مرة أخرى إلى بخل الحكيم قائلاً: "لا يتحدث الناس عنك إلا بأنك بخيل أشدّ البخل، متهالك على المال أكثر مما كان يتهالك بُخلاء الجاحظ... لا يذكر، بالنسبة إليك سهل بن هارون، ولا الكندي ولا ابن المؤمل ولا غير هؤلاء من الذين تحدث عنهم الجاحظ في بخلهم وحرصهم وتهالكهم على المال، ولا تكاد تجلس في مجلس إلا أخذ

أصحابك يجادلونك في البخل والجود، وفي الحرص والإنفاق، وفي السماحة والكزازة، والطريف أنك ترضى عن هذا كلّ الرضا، وتحاول أن تضيف إلى نفسك من هذا البخل ألواناً وأشكالاً ما أعرف أن شيئاً منها يتصل بنفسك حقاً".

رد توفيق الحكيم على هذا الكلام: "إنك حين تنفي عني تهمة البخل ستطمع الناس فيّ!...، فكانت نكتة ضحك لها القوم...".

وعلى ذكر بخل الحكيم الأسطوري قرأت في كتاب "خريف الغضب" للكاتب الصحفي الأديب محمد حسنين هيكل الذي كانت تربطه بتوفيق الحكيم عرى صداقة متينة، مشيراً إلى حرص الحكيم وبخله في رسالة وجهها إلى صديقه قال... "وفيها كنا نتغدى معاً كل يوم، تدعوني مرة وأدعوك مرة ليتوازن الحساب، وأنت دائماً دقيق الحساب، وكانت لك فيه قواعد أثارت ومازالت تثير عجبي، أو هل أقول إعجابي؟ كنت قد وضعت قانوناً للحساب بيننا إذا كانت الدعوة يوماً عليك فقد كان شرطك لازماً ولو أردت أنا اختيار المطعم الذي نتغدى فيه فأنت الذي تختار المطعم، وهكذا تضمن في كل الظروف أن تتحكم في الميزان، ومازلت كما أنت في حساباتك وقوانينك، ظننتُ أنك في كلمتك تريد أن

تدعوني معك إلى غداء فإذا أنت بفرط ذكائك تدعوني إلى أن أدعـوك... وتختـار أنـت المطعـم والأطبـاق وتنسـى كـل فـواتير الحسـاب"!...

طه حسين والآنسة مي[1]

يبدو أن الأديبات من الجنس اللطيف لم يكنّ بمنجاة من غضب طه حسين ونفرته المزاجية منهن. فقد ألقت الأديبة الآنسة مي (ماري زيادة) محاضرة في الجامعة الأمريكية في

(1) الآنسة مي واسمها الحقيقي ماري بنت إلياس زيادة. أديبة وكاتبة في طليعة الأدب النسائي. ولدت في مدينة الناصرة بفلسطين سنة 1886 وفيها أنهت دراستها الأولية، درست الأدبين الإنكليزي والفرنسي وتأثرت بأساليبهما. هاجرت مي إلى مصر وعملت في جريدة أبيها "المحروسة" ثم ما لبثت أن اشتهرت في الأوساط الأدبية المصرية من جراء نشرها مقالاتها في كبار الصحف اللبنانية في مصر. عرفت مي بجرأتها في المناداة، في الأوساط التقليدية، بأفكارها الاجتماعية التقدمية. فتحت مي أبواب دارها لنخبة من أعلام المجتمع المصري أدباء وشعراء وسياسيين ووجهاء فاشتهرت تلك الدار بما أسموه "صالون مي" فكانوا يسمرون ويتبادلون الأحاديث فيه في جوٍ راقٍ مترفٍ ـ توفيت مي سنة 1941. راجع ما كتبناه عن الأديبة مي في "أسماء وأحاديث. (11 ـ 56).

القاهرة قرنت فيها طه حسين بالشاعر العظيم أبي العلاء المعري، إكباراً وتمجيداً له، ولكن المحاضرة ـ لسبب ما ـ لم تنل رضاه، فقد أثارت المقارنة استنكاره وسخطه فكتب إليها رسالة مطولة جاء فيها: "يا آنسة ... ما بالك تؤثرين المبالغة، وتحبين الإسراف، ولا تقنعين بالحقائق الواقعة، ولا تكتفين بالحقائق الواقعة، ولا تكتفين بأن يسمى الناس بأسمائهم؟ من الذي زعم لك أن اسمي أبو العلاء، أو من الذي زعم لك أن بيني وبين هذا الرجل العظيم الفذّ، في حياتنا الأدبية الطويلة شبهاً قريباً أو بعيداً؟ أحب أن أشكر الذين يحسنون إليّ وأقدر الذين يثنون علي ثناءهم، ولكني أحب أن يكون هذا الثناء ملائماً لمن يساق إليه، فهل تأذنين لي في أن أكون ثقيلاً فظاً، وغليظ الطبع، خشناً كما تعودتُ أن أكون دائماً حتى حين أتحدث إليك، فلا أشكر لك هذه التسمية، ولا أقبلها منك، وإنما أرادها إليك مع تحية ملؤها الإكبار والإعجاب والاحترام... وشيء آخر أنا مضطرّ أن أبرئ ذمتي منه قبل أن أدخل في هذه الخصومة التي أثرتها بيننا أيتها القاسية، الجائرة، في غير ما يدعو إلى خصومة أو حوار إلا حبّ الشرّ والرغبة في إثارة الحفيظة والموجدة...".

ماذا بقيَ من طه حسين؟

وبعد فإننا نتساءل اليوم عما إذا كان لا يزال طه حسين حياً في الأذهان وعما إذا كان الكثير من آرائه "مازال ناصعاً فاعلاً"، وهل بقي منه شيء بعد مضي أربع وعشرين سنة على وفاته؟، وبعد أن هدأت الضجة التي أثارها، واختفت أصوات المعجبين والأنصار، وتغيرت النظم والعقليات والثقافات والأذواق وأساليب الحياة؟ مما يقودنا أيضاً إلى التساؤل عن سرّ هذه الشهرة التي رافقت حياته. هل الشهرة التي تقوم على إبداع آثار أدبية أو فكرية تفوق سابقيها من الآثار وتظهر الحياة في صور ومفاهيم جديدة فيفتن بها الجمهور فيقبلون عليها مدفوعين بتلك الجدّة والطرافة؟ أم أن الشهرة ظاهرة بسيطة في معناها ومرماها تقوم على آثار عبر أصحابها عن اتجاهات اجتماعية ورسموا مناهج ومذاهب أدبية أو دينية أو قومية جديدة حتى إذا أدت رسالتها ملّها الناس وأعرضوا عنها مسوقين بدوافع تطور ذوقي واجتماعي وفكري وحضاري إلى

أن يحل محلّها بحكم دورة الزمن وقانون التطور، آثار تؤدي رسالتها على نحو جديد وظروف ملائمة؟

إن الأمثلة على هذا التحول في أدبنا المعاصر كثيرة. لعل من أبرزها مثال المنفلوطي، فهل من أحد اليوم، بين الأجيال الصاعدة أو النازلة من سمع، بَلْهَ من قرأ له؟ بل هل من يقرأ اليوم آثار عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني أو عبد الرحمن شكري أو حسين هيكل أو مصطفى صادق الرافعي وسواهم من العمالقة؟ لقد دخلوا جميعاً عالم النسيان وأصبحت آثارهم التي شغلت أهل زمانهم في عهدة الزمن الذي يبقي على القيّم الخالد، ويعفي التافه المرذول؟

مقالات ودراسات أدبية

- زكي مبارك
- أديبة القرن العشرين
- خواطر صحفية
- الثلج والشعراء

زكي مبارك[1]

كان المارّ في شوارع القاهرة يشاهد رجلاً يخبّ في سيره، ربعة بين الطول والقصر، محلول ربطة العنق، يتأبط رزمة من الصحف والمجلات والأوراق، على رأسه طربوش مسطوح إلى الوراء برز من جانبيه شعر جَعْد، جَثل، ينظر بعينين زائغتين، دائمتي الحركة والدوران، يعلو فمه شاربان غير مهذبين، وكان كل شيء في مظهره يوحي بالفوضى والإهمال وعدم الائتلاف والاتساق، إن لم يكن بالتباين والتشاكس، إنه الأديب والشاعر والكاتب والمؤلف الدكتور زكي مبارك أو الدكاترة زكي مبارك أحد المساهمين في الحركة الأدبية والنقدية الحديثة في مصر.

---

(1) هو زكي بن عبد السلام مبارك ولد في قرية (سنتريس) في مصر سنة 1891 بدأ حياته معمماً، تعلم في الأزهر ثم انفصل عنه وتطلع إلى الجامعة المصرية حيث أنهى دراسته العالية وأحرز لقب دكتور في الآداب بأطروحة عنوانها (الأخلاق عند الغزالي) كان متمكناً =

ولد زكي مبارك في الريف وتتلمذ إلى مشائخ الأزهر،

من العلوم العربية والإسلامية، سافر إلى فرنسا على نفقته حيث قضى عامين حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة باريس بأطروحة موضوعها (النثر العربي في القرن الرابع الهجري). اطّلع زكي مبارك في فرنسا على الأدب الفرنسي فصار "مؤمناً بالحضارة الغربية والأدب الأوروبي يحاول أن ينقل أساليبه واتجاهاته إلى الأدب العربي". اشتغل زكي مبارك في مصر بالتدريس وعمل مدرساً في بغداد عين مفتشاً في وزارة المعارف المصرية وكان في أعوامه الأخيرة ينشر فصولاً من مشاهداته وذكرياته في فنون الأدب والتاريخ بعنوان (الحديث ذو شجن)، في مجلة "الرسالة" وغيرها، غلبت عليها الجرأة في عرض مشاكل الأدب والعاطفة والوجدان، تحدّث في أكثرها عن نفسه في حلقات تدور بين المديح والثناء على الذات.

لزكي مبارك مؤلفات عدة تجاوزت الثلاثين أو الأربعين كما يقول أهمها: "النثر الفني في القرن الرابع الهجري" وظل طوال حياته يفخر بكتابه هذا ويعدّه آية من آيات التأليف، "البدائع"، "حب عمر بن أبي ربيعة"، "الأخلاق عند الغزالي" وهو أطروحة الدكتوراه إلى الجامعة المصرية "التصوف الإسلامي" وفيه تراجع عن الأفكار التي دونها في كتابه عن الغزالي "الموازنة بين الشعراء" وله ديوان شعر صغير، وله كتب ذات طابع عاطفي يُنبئ عناوينها عن موضوعها "مدامع العشاق" "ليلى المريضة في العراق" "رسائل مجنون سعاد" "ذكريات باريس" توفي زكي سنة 1952 على إثر صدمة عربة أدت إلى ارتجاج في دماغه فمات بعد ساعات.

عاش فترة من شبابه في قريته (سنتريس) فلم يجد في هذا المحيط الضيق مجالاً للتفتح والانطلاق وهو "المشبوب الأوار، الصادر عن نفس ثائرة، وعاطفة متحفزة لا يهدأ ولا يستقر" فأراد الانتقال إلى دنيا القاهرة حيث المجال واسعاً لكل موهوب أو مجازف ينشدُ الظهور والتألق.

بقي زكي مبارك حيناً من الزمن في المدينة الكبيرة مجهولاً لم يحظ من الجمهور بذكر ولا خبر، فصحت عزيمته على إحداث ضجة تلفت الأنظار إليه آملاً يوماً ما، احتلال مكانه في الوسط الأدبي فيكون من كبار الأدباء والنقاد. ويذكّرنا موقفه هذا بأحد الكتاب الفرنسيين الذي نشأ في الريف فكتب وألف فلم يحظ بالشهرة المأمولة وظل حبيس بيئته الصغيرة، وأخيراً عزم على هجر الريف، والانتقال إلى العاصمة باريس حيث الحياة الأدبية والفكرية والمجال الواسع لإنماء المواهب والاستمتاع بالشهرة. فلما نزل من القطار الذي أقلّه إلى المدينة رفع قبضتيه إلى السماء صائحاً متوعداً: الآن بدأت معركتي معكِ يا باريس!...

ها هو ذا زكي مبارك في القاهرة فكيف السبيل إلى الظهور في مجتمعها الأدبي، وهو الفلاح القادم من أعماق الريف.. بدا له أن يتحرّش بالأدباء وذوي الرأي والشهرة وذلك

بخلق المهاترات والعداوات انسياقاً مع فطرته البدوية أو الريفية القائمة على الفطرة والعفوية والصراحة الفجة غير مراعٍ المواضعات الاجتماعية والكياسة التي يتسم بها سكان العواصم الكبرى فغلبت على أقواله وأحاديثه "الخشونة والجفوة والاقتحام" تصدر عند نفسية لا تخلو من اضطراب وتناقض أجملها بقوله: "أنا بين المؤمنين مُلحد، وبين الملحدين مؤمن، وأنا بَرٌّ عن الفجّار، وفاجر عند الأبرار فأنا في كل بيئةٍ أجنبي وفي كلّ أرض غريب". دأب زكي مبارك على استفزاز الأدباء والنقاد وأرباب الإعلام واستدراجهم إلى أنواع من المشاجرات والمهاترات حتى قال عنه طه حسين: "إنه ينظر فيرى الناس قد ضجروا من الهدوء والسكون فيسلط عليهم القذائف القلمية ليتذوقوا نعمة الحركة والجدل والنضال".

لجأ زكي مبارك في المحيط القاهري إلى أساليب عدة لإثبات وجوده ولفت الأنظار إليه منها:

1 ــ إدعاؤه البؤس والحرمان، وإبداؤه مشاعره على الطريقة الرومانسية كرجل مظلوم مضطهد استدراجاً لعطف الجماهير وإيثاراً لتجويد الصنعة، والتبريز في صناعة الكلام.

2 ـ الإكثار من حديثه عن نفسه الذي انسحب، تقريباً، على كتاباته حتى بدا هذا الحديث حلقات تدور في

استطراداتٍ ومديح وثناء وذكر العيوب لإظهار المحاسن الذاتية إلى حد إملال القراء. فرد على ذلك قائلاً: "إن تصوير هموم النفس، وما يحيط بها من مخاوف وآمال هو أدب صحيح جعلته الكتب السماوية من شمائل الأنبياء، فما العيب في أن يكون الحديث عن نفسي من خصائص أدبي، وهل يمكن أن أتعرف إلى الوجود قبل أن أتعرف إلى نفسي، وهل كانت روائع الأدب في جميع الأمم إلاَّ أحاديث نفسية؟".

3 ـ كتابته موضوعات أدبية من شأنها إثارة الرأي العام وإغضاب الطبقة المحافظة كعرض مشاكل الحب والغرام وما يسمى الأدب المكشوف مصرحاً بأن هذا الأدب المكشوف خير من الأدب المستور، وأن الأدب كالفن يجب أن يسمو عن الأوضاع الاجتماعية، والتقاليد، والعقائد الدينية، حتى لا يضعف ولا يضوى بوضعه تحت رحمة المتزمتين من رجال الدين، ومضايقات دعاة الأخلاق، لأن للتزمت والتعصب تأثيراً في إخماد الآداب والفنون. وقال في تسويغ هذا النهج الجريء: "لأمر ما صنع الأقدمون فينوس عارية الجسم، غنية عن الحليّ واللباس، صنعوها لتبقى مُنية الأفئدة ونهبة العيون" لذلك فهو يأسف "لتحطيم العرب النصب والتماثيل" ثم أنهى كلامه، وهو الفلاح القادم من الريف المحافظ بعبارة ظن أنها

ترضي يومئذٍ أنصار تحرر المرأة قال: "لا تتقدم الآداب العربية إلا إذا نظر الأدباء المرأة في حرية وصراحة وتأثروا بجبروتها".

4 ـ التحرش ببعض أدباء زمانه المشهورين، ملتزماً الجرأة والاندفاع في القول دون تقدير لنتائج الخصومة فقال مثلاً عن العقاد، وهو من هو يومئذٍ في عالمي الأدب والسياسة، عبارة لا تخلو من استخفاف وتهديد قال: "زعم العقاد أن سعداً (سعد زغلول باشا) خلع عليه لقب الكاتب الجبّار، والعقاد كاتب بلا جدال وشاعر من أكابر الشعراء وله في نفسي منزلة عالية ـ حفظه الله من جميع الأسواء ـ ولكن الكاتب الجبار الذي عناه سعد باشا هو عبد القادر حمزة صاحب جريدة البلاغ كما تشهد بذلك مذكرات سكرتير سعد زغلول، وإن كتب العقاد حرفاً في تكذيب هذا الكلام فسيكون لي معه كلام..".

وتعرض زكي مبارك للكاتب المنشئ عبد العزيز البشري[1] مؤلف كتب: "في المرأة" و"المختار" و"قطوف" والذي

(1) عبد العزيز البشري (1886 ـ 1943) أحد نجوم المجتمع القاهري لقي حفاوة وتقديراً في الأوساط الحاكمة الثقافية "كان مرحاً طروباً حلو العشرة مليح النفس" وعرفت كتبه ومقالاته رواجاً نادراً بفضل أسلوبه الكتابي المتميز. ولا ريب في أن زكي مبارك الذي

اتصف أسلوبه بالفكاهة والسخرية والنكتة وتقليد الأسلوب الكتابي التقليدي، واستعمال الازدواج والسّجع والمحسّنات اللفظية والبديعية. قال زكي مبارك: "البشري كاتب على الطريقة البشرية، كاتب يذكّرك كلّ سطر بأنه أديب يتصيّد الأوابد من مجاهيل القاموس، واللسان، والأساس، وهو رجل صخّاب، ضجّاج، يدقّ الأجراس الضخام حين يدخل الغابة للصيد، هل سمعتم بالرحى التي تطحن القرون، هي البشري في بعض نثره القعقاع، إذ يندر أن تجد في نثر هذا الرجل صفحة خلت من التكلّف".

وجاء من يردّ على مبارك قائلاً: "استحدث البشري في أساليب العربية أسلوباً أضفى عليه من روحه المرحة وعلمه الواسع، وذوقه السليم ما تفرّد به بين الكتّاب". وقال شاعر القطرين خليل مطران معبراً عن إعجابه بكتاب "المختار": "لقد ألهم الله الأستاذ البشري خيراً فوافى أمنية تجيش في صدور محبيّه والمعجبين به بأن جمع من خطبه البارعة ومقالاته

كان يلهث يومئذٍ وراء الشهرة غبطَ بل حَسَدَ البشري على هذه المنزلة الرفيعة فعزم على التحرّش به وتحطيمه مما أغضب مُحبي البشري والمعجبين به.

الرائعة، فاستوت كتاباً هو في وقته كنز لأولي الألباب، وسيظل فيما يلي من الزمن ذخراً للأحقاب".

وقال عن براعة البشري في الوصف: "الله الله في دقة الوصف واستشفاف اللطف ما يتحرك به الحسّ في أطواء النفس، الله الله في روعة الأسلوب وصفاء العبارة، وبلاغة تمهيد الفواتيح للخواتيم".

وهناك مساجلة مشهورة بين مبارك والكاتب الكبير أحمد أمين شغلت الرأي العام الأدبي في مصر وخارجها. وكان أحمد أمين نشر مقالات عنوانها: "جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي" خلاصتها:

1 ــ "إن الشعر العربي من حيث الموضوع، لم يتغير إسلاميُّه وجاهليُّه إلاّ قليلاً فقد ظل محصوراً في المديح والهجاء والفخر والحماسة والغزل والرثاء".

2 ـ مبالغة العرب في تقديس القديم.

3 ـ ضعف إحساس العرب بالطبيعة.

4 ـ الأدب العربي أدب معدة لا أدب روح.

فرد عليه زكي مبارك بسلسلة طويلة من المقالات بلغ عددها ثلاثين مقالاً أحدثت ضجة في أوساط العروبة عنوانها

"جناية أحمد أمين على الأدب العربي" فنّد فيها آراء أحمد أمين واستهلها بقوله: "إن أحمد أمين يدرس ماضي اللغة العربية بلا تحرز، ولا رفق، ولو تركناه شهرين اثنين ـ وكانت المقارعة، والحق يقال، من جانب واحد هو جانب زكي مبارك ـ يؤرخ الأدب على هواه لجعل الأمة العربية أضحوكة بين العالمين".

ولم يكن ثمة تعاطف بين الاثنين عبّر أحمد أمين عن ذلك بصورة أدبية رسمها لزكي مبارك تبين فظاظة هذا وعدوانيته قال: "كلما رأيت زكي مبارك أو استحضرت صورته أشعّ عليّ معنى غريب يصعب تصويره، وربما كان أقرب تصوير له رجل يتمسك بيسراه كتاباً قيّماً فيه علم غزير، وأدب وفن، وبيده اليمنى عصا أشهرها، ثم هو يُطلع الناس على ما في كتابه من طرف، فمن هم أن يفتح فاه بنقدٍ أو مخالفةٍ أقنعه بما في يمناه، بل قد يؤمن الناظر بما يعرض عليه، فلا يعجبه الاستسلام، وهذا الإيمان، فلا يزال يهيجه حتى يبدأ بالمخالفة أو لا يظن أنه سيبدأ بالمخالفة فيُشهر عليه العصا بل يكون السالك على علم بذلك فيتنحّى عن كتابه وعن عصاه، وينتحي ناحية أخرى فيسرع زكي مبارك ليسدّ عليه المسلك، ويأبى أن يفسح له الطريق حتى ينظر إلى الكتاب فإذا نظر فالنتيجة هي هي أيضاً، هي العصا..".

ودأب زكي مبارك على مهاجمة أحمد أمين وتجريده من موهبته الكتابية وعلمه فقال: "إن الدكتور طه حسين هو المسؤول عن أحمد أمين فهو الذي قال: "إن أحمد أمين لم يكن يعرف نفسه فهديناه إليها". ومعنى ذلك أن أحمد أمين لم يكن يعرف أنه أديب قبل أن يدله الدكتور طه حسين على الكنز المدفون في صدره، إن أحمد أمين لم يكن أديباً وإنّما قال له طه حسين: "كُنْ أديباً فلم يكن"..".

أما خصومة زكي مع طه حسين التي تعود، كما قيل إلى سبب شخصي صرف، وهو ـ كما ادّعى زكي مبارك ـ عدم تصديق طه حسين وهو يومئذٍ عميد كلية الآداب عقد زكي في الجامعة، وكان المبارك أستاذاً بها وقالوا في تعليل ذلك: "إن زكي مبارك دخل الجامعة في عهد صدقي باشا، على يد الأبراشي باشا فلما تغيّرت الحياة السياسية في مصر وعاد طه حسين إلى الجامعة وعرض عليه عقد زكي مبارك عند انتهاء مدته، لتجديده رفض التوقيع وقال: "لم أستشر في تعيينه".

كان زكي مبارك في مؤلفاته، كما يقول محمود تيمور "ينقض نفسه نقضاً ويكشف عن جبلته كشفاً، فيركز لك خصائص شخصيته واستبطان أسرارها والتفطن إلى ما فيها

من طرافة أو شذوذ، كان يبدأ حديثه بنكتةٍ أو نادرة وينقلك منها إلى تحقيق لغوي أو أدبي ينطوي على غمزٍ ولمز يصيب به القريب والبعيد... ويتخلل ذلك أنباء مبارزة وطعان مع الأقران وغير الأقران مما خلق له أنواعاً من العداوات والمشاجرات لم يأبه بها". ثم زاد تيمور في تحليل شخصية مبارك قال: "إنه كشكول حيّ مبعثر، بل مسرحية مختلطة، فيها مشاهد شتى من مأساة وملهاة ومهزئة، أو لكأنه برج بابل ملتقى النظائر والأضداد".

وهناك مساجلة كلامية وكتابية مع مصطفى صادق الرافعي الذي اتهم مبارك بالسرقة وكان الرافعي ألف كتاباً عنوانه "أوراق الورد" معلناً أن هذا الكتاب فن جديد في الأدب العربي كله لم يسبق إليه. فتصدى له زكي مبارك مدعياً أنه عثر على رسائل غرامية في الأدب العربي، فردّ عليه الرافعي أن الرسائل لا تعدّ من الرسائل الغرامية بل هي من الإخوانيات. وتابع قائلاً: "إن زكي مبارك غلط غلطة هائلة في زعمه العثور على رسائل غرامية أورد فيها أشياء، وكلّها رسائل للغلمان، قال مبارك: "في أوائل سنة 1925 كنت مع الأستاذ الدكتور منصور فهمي في بار اللواء.. وكان معنا الأستاذ مصطفى صادق الرافعي يُنشدنا فقراتٍ من كتاب "السحاب الأحمر"

وبعد حوار شخصي بيني وبين الأستاذ الرافعي استطرد فقال: "وأنت سرقت كتاب "مدامع العشاق" من كتاب الزهرة[1] فقلتُ ويحك ماذا تقول؟ إنني أعرف أنه كان هناك كتاب بهذا الاسم ولكني ما كنت أظن أنه موجود فقال: إنه مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية، فاشتدت رغبتي في الاطّلاع على هذا الكتاب الذي سرقت منه "مدامع العشاق" من حيث لا أشعر وبعد مضي خمس سنوات اعترف مبارك بصدق دعوى الرافعي[2].

وانتقل الرافعي إلى نقد تصحيح زكي مبارك كتاب "زهر الآداب"[3] وإحصاء غلطاته فقال: "إنّه غلط مئتي غلطة

---

(1) كتاب "الزهرة" للإمام أبي بكر محمد بن داود الظاهري (255 ـ 297هـ) كان أديباً شاعراً ظريفاً عالماً في الفقه لغوياً له مؤلفات عديدة أهمها كتاب "الزهرة" وهو "مجموع أدب آتي فيه بكل نادرة وغريب وشعر رائق". ولد أبو بكر في بغداد ونشأ بها وتصدّر فيها للفتوى توفي فيها مقتولاً. طبع كتاب الزهرة لأول مرة المستشرق الألماني فرنكل frankel في بيروت سنة 1932هـ.

(2) راجع: مدامع العشاق لزكي مبارك ص 5.

(3) طبع زكي مبارك كتاب "زهر الآداب" للحصري، وكان قبلاً مطبوعاً على هامش "العقد الفريد" لابن عبد ربه الأندلسي، وقد =

منها غلطات في الجهل. ولو اطّلعت عليها لأيقنت بأنه حمار كبير وهو مع ذلك دكتور في الآداب...

ومن جملة المعارك التي أثارها زكي مبارك وفيها تجلّت أخلاقه وجرأته وتعاليه على أقرانه، المعركة التي جرت بينه وبين السباعي بيومي صاحب كتاب "تهذيب الكامل للمبرد" فقد زعم مبارك أن السباعي بيومي طعن في إحدى محاضراته في دار العلوم في أخلاق (سيد المرصفي)[1] أستاذ المبارك في الأزهر وشارح كتابي "الكامل" و"ديوان الحماسة" واتّهمه بالغرور والادعاء والتطاول على المبرّد فتطوّع زكي مبارك

تبين أن زكي مبارك أهمل في طبعته الضبط والتحقيق، ولم يعتمد على الأصول المخطوطة ودواوين الشعر وأمهات كتب التراث فكثرت في طبعته السيئة الأغلاط الفاحشة بالإضافة إلى أنه ملأ صفحات الكتاب بعناوين ليست من الكتاب "أخلّت بنظام عقده وبعثرت حبّاتٍ دُرّه، وأضلّت القارئ.

(1) هو الشيخ حسين المرصفي أحد أعلام النهضة الأدبية والعلمية في مصر. لقب بشيخ الأدباء في زمن الخديوي إسماعيل. مارس تدريس الأدب العربي وتاريخه في الأزهر ودار العلوم. ألف كتاباً ضخماً هو مجموع محاضراته عنوانه "الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية" وفيه مختارات من الشعر والنثر. توفي المرصفي سنة 1889.

للدفاع عن أستاذه فهاجم السباعي بيومي بعبارات فيها تهديد ووعيد قال: "أعلن غضبي على ما بدر منك، إنّ التطاول على الشيخ المرصفي لا يذهب بلا عقاب.." فرد عليه السباعي بيومي: "أمّا قولك هذا "فسبحانك اللهمّ وتعاليت" فما كان لأحد أن يقول: "ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى[1] إلاّ أنت".. واستمر زكي مبارك في استفزاز السباعي بيومي واستصغار شأنه العلمي قال: "وكيف يخيفني تهديد الأستاذ السباعي بيومي وليس في ماضيه الأدبي غير نقل نصوص كتاب "الكامل" من مكان إلى مكان، وتلك مهمة يقوم بها أحد النسّاخين بدراهم معدودات".

وكان زكي مبارك يقول عن السباعي بيومي قبل الخلاف: "كان دائماً من أنصاري فردّ السباعي: "ليس لمثلي أن يُخدع بخدعة الصبي هذه تسوقها إليه، والحقيقة التي أسمعُكَ إياها بعد أن طغيت زمناً لم ترتد، أنك ما كنت في يوم من الأيام زعيماً في الأدب حتى يصحّ أن يكون لك أنصار، وإنّما زعامتك نسيجُ عنكبوت حكته من حولك وتركك الناس تلهو به وتلعب".

---

(1) القرآن الكريم: سورة طه 82.

وكان زكي مبارك عجب من سكوت الأزهريين عن الانتصار لشيخهم المرصفي فرد السباعي بيومي: "إن عبارتك هذه من باب الاستعداء الذليل، والملق الرخيص الذي يُنقص منك ولا يزيد فيك.. إنني بهذه الخصومة لجدّ مسرور، أتدري لماذا؟ لأني سأعرضك فيها على الجمهور على حقيقتك التي غشّيتها ما غشّيتها، وتسامح الناس معك فيها ما تسامحوا وسيكون أول كشفٍ لك فيما عملت واقعاً على كتاب "زهر الآداب" لأنه دون سائر أعمالك، أشبه بما عملت في تهذيب "الكامل" الذي عددته جناية "أدبية".

أقيمت في الجامعة المصرية سنة 1940 مناظرة بين زكي مبارك ولطفي جمعة حول النثر الفني، ثم امتدت إلى مساجلة تبادلا فيها عبارات الهزء والشماتة والنقد القاسي. أما النثر الفني فمن المعروف الشائع عند المستشرقين أنه لم يكن للعرب نثر فني بل اقتبسوه عن الفرس فكان ابن المقفع أول ناثر عربي فارسي، فجاء زكي مبارك في أطروحته "النثر الفني في القرن الرابع الهجري" التي قدمها إلى جامعة السوربون فقال: "إن أصول النثر العربي ناشئة عن النثر الجاهلي ولم يُنقل عن النثر الفارسي وأصرّ على القول بأن القرآن هو أصحّ مصدر للنثر الجاهلي، وأن العرب عرفوا في الجاهلية نهضة

أدبية وعلمية واجتماعية جعلتهم جديرين بالملك والفتوحات على مدى ثلاثة قرون، وفي أثناء ذلك نشأت عند العرب فنون الشعر والخطابة والنثر الممثل بالقرآن الكريم الذي نزل بلغة الجاهليين. ردّ محمد لطفي جمعة على هذه الآراء ناقداً النظرية من الأساس قال: "ألا فليعلم زكي مبارك أن العرب في جاهليتهم كانوا أميين، فلم يحفظوا عن طريقة الكتابة شيئاً يستحق الذكر، ويبتعد عن الحقيقة كل من يقول إن الإسلام كان تاجاً لنهضة فكرية علمية وأدبية وأخلاقية واجتماعية... إن العرب لم يكونوا على شيء من مؤهلات المدنية والنهضة بل كانوا على العكس في حضيض من العصبية الحمقاء، والمطامع الأشعبية وحب الانتقام، والتفريق بين القبائل والاستهزاء بروابط الألفة القومية". وانتهى الجدال عند هذا الحد.

أما المساجلة بين مبارك وعفيفي فموضوعها نقد مبارك كتاب عفيفي "زهور منثورة" قال في جملة ما قال: "إن الكتاب يقع في 192 صفحة وفيه هفوات عددها 27 هفوة منها هفوات بسيطة ومنها هفوات جوهرية، وهذا ما قيدناه ونحن نراجع الكتاب، وفي هذه المؤاخذات دليل على أننا راعينا صديقنا الأستاذ عفيفي، ونحن نصادق الناس ونبالغ في محاسبتهم على

يسير الهفوات، وكان من واجب الأستاذ عفيفي أن يقدم إلينا كلمة ثناء ورعاية للجهد الذي بذلناه في تصحيح كتابه، فرد عفيفي: "أهنئك على نجاحك فيما اعترفت من حمل الأدباء على مساجلتك بكل ما ملكت من حيلة، وما بذلت من وسيلة حتى ولو كانت من تلك الوسائل التي يعدّها بعض رجال الأدب تجنّياً غير سائغ وتحاملاً غير مقبول، ذلك ما أؤوّل به دعابتك الطريفة، ومزاجك الرشيق في نقد كتابي.. ومن الخير لي ولك أن أعدّك هازلاً في كثير مما أتيت به لأني لا أعتقد أن يرخص النقد الأدبي في هذا الزمان حتى يكون تصحيحاً مدرسياً تحاسبني فيه على حرف نافر أو نقطة طائرة". أجاب زكي مبارك مشيراً إلى الغلطات النحوية في كتاب عفيفي: "من كان يظن أننا سنلقي درساً في النحو على فضيلة الأستاذ عبد الله عفيفي. تلك والله أعجوبه الأعاجيب، فالأستاذ لا يزال يحمل العمامة، وهو فوق ذلك مدرس في الأزهر معقل علوم العربية، ومثل الأستاذ عفيفي إذا دخل الأزهر وقف لقدومه قواعد النحو صفاً صفاً، فكانت المنصوبات في جانب والمرفوعات في جانب، وقد تصدمه المجرورات من شماله إذا دخل من الباب الذي كان يسمى باب المزيّنين.. فرد عفيفي: "إنك يا دكتور زكي، أرخصت النقد وأهزلته، لأنك فهمته

مراجعة مطبعية، وزعمته تصحيحاً مدرسياً، فلم تصغ إلى ما أقول.. إلى الأزهر يا دكتور زكي فإن الهواء أطارك منه أخضر فجاً لا تحسن مبادئ ما يدرس فيه. إلى الأزهر يا دكتور زكي واحذر أن تثوي عند باب المزيّنين أو عند هذا الشيء الذي تتضح به منه، فقد ذهب عهده كما ذهب عهدك منه".

إلى الأزهر يا دكتور زكي، لتعرف باب الاشتغال فقد طويت في دراسته إحدى عشرة ليلة ثم خرجت منه أفرغ مما دخلت فيه، تريد أن تعلّمني النحو يا دكتور زكي، اسمع يا بابا، اسمع يا معلمي، اسمع يا شاطر، واعلم أن لتلاميذك حقاً إن لم يكن عليك فعلى الذين ائتمنوك عليهم... إنك أرخصت النقد وأهزلته لأنّك فهمته مراجعة مطبعية وزعمته تصحيحاً مدرسياً فلم تصغ إلى ما أقول، وشاء أن يردّ وجاء في رد بعامل جديد زاد النقد رخصاً وهزالاً حتى انحدرت سوقه عن سوق القمح والقطن والفول والشعير... ذلك العامل: أنه اتخذ الشتم حجة، واللغو سلاحاً، وشاء أيضاً أن يكون خريفاً[1] خفيفاً أكرم الله وجهه، وقد تصدمه المجرورات من شماله إذا دخل

(1) الخريف الفاسد العقل.

من الباب الذي يسمى باب المزينين. أرأيت كيف كان ظريفاً، وكان نظيفاً في نكتته. وهذا الذي يقذف فمُه الشريف بهذه المجرورات برغم أنه سامر حِسان باريس، وساهر حِسان باريس، ولو أنه سامر حِسان الصومال أو حِسان ما وراء خط الاستواء أو أي حسان بين أعطاف الأرض وأطرافها ما قارف تلك الكلمة التي تكدّر الجو وتزهق الأنوف".

استطاع زكي مبارك وهو الكاتب "المتّقد العاطفة والمعروف بالجرأة والطلاقة في الكتابة أن يكتشف أسرار الحياة المصرية الرسمية والسياسية والحزبية في العاصمة القاهرة فهاجمها وفضح أساليبها وبدا أنه لم يُخلق ليكون كاتباً سياسياً، وأن الأديب الذي يقصرُ عمله على الأدب الصرف بعيداً عن السياسة والحزبية يظل مجهولاً من الجمهور وأن الكتابة السياسية والحزبية تضمن للأديب مكانة لائقة وكلمة مسموعة بالإضافة إلى الرفاه ونعومة العيش، وبما أنه لم يقدم على سلوك هذا المسلك كان ذلك من عوامل إخفاقه فيما بعد في إدراك الشهرة والتألق المرجوين. ثم أن مبارك لم يكن من المنتسبين لمدرسة (الديوان) النقدية التي أسسها العقاد والمازني وشكري، كما أنه لم يعمل في الصحافة الحزبية كما عمل طه حسين وقد قادته فطرته البدوية أو

الريفية في التزام الصراحة غير آبه بما اصطلح عليه سكان المدن الكبرى من أساليب الكياسة والحصافة وملاطفة الناس فنفض كلّ ما في صدره من مشاعر. قال في التعبير عن تجربته القاسية وعزلته وخيبة آماله: "إن الواقع يشهد بأن النجاح في الأدب في مصر قام على أسناد من العصابات والجمعيات فعندنا في مصر أحزاب أدبية، وإن لم تصبغ بالصبغة الحزبية، وبفضل ذلك التحزّب في عالم الأدب كان أهلاً للخمول لو واجهت الحياة الأدبية بلا سِناد من الأهل والأصدقاء".

إن أسلوب زكي مبارك الكتابي واندفاعه وجرأته فيما يعتقد أنه الحق، وانصياعه لعواطفه وتصوراته أبعده عن سلوك المجاملة وتقدير نتائج الخصومات التي أثارها فأدّى هذا كلّه إلى أن تشكل حوله حلقة من الخصوم سدّت عليه المسالك وكادت تحرمه من لقمة العيش، ولعل خصومته لطه حسين من أشهر الخصومات الدالة على أخلاق الأدباء وخلفيات صراعاتهم[1].

(1) كانت جرت بين زكي مبارك وأستاذه طه حسين معركة كلامية أسموها "معركة لقمة العيش" دامت ثلاث سنوات، ولا بدّ لفهم =

لما سئل طه حسين عن أسباب غضبه على زكي مبارك قال: "كان بيني وبينه خلاف أو نفار، ولكن الدكتور أحمد أمين أصلح بيننا فرضيت عنه".

ولما سئل عن أسباب إقصاء زكي عن الجامعة وأنه هو المسؤول عن ذلك قال: "هذا غير صحيح، ولكن خروج زكي مبارك من الجامعة يرجع إلى سلوكه الشخصي الذي يتنافى مع كرامة أستاذ الجامعة... فقد ذكر لي فؤاد سراج الدين "أنه كان ينجح في الامتحان حين كان يَدْرُسُ بكلية الآداب قبل أن يتلقى دروس كلية الحقوق، فقد كان النظام حينئذٍ يفرض أن يدرس طلبة الحقوق في كلية الآداب بعض المناهج

دوافع المعركة وملابساتها من التعرض لخلفية الظروف والمنافع التي أدت إلى حصولها. من المعروف أن زكي مبارك كان، في بداية الأمر، معجباً بأستاذ لا يحبه ولا يؤمن به" اتخذه مثالاً في حياته العلمية ووقف إلى جانبه في المعارك والخصومات والعداوات التي تعرض لها، وما أكثرها، وأراد زكي مبارك تقليد أستاذه والسير على نهجه في الحياة العملية والعلمية فسافر على نفقته إلى فرنسا وقدّم أطروحة الدكتوراه عن النثر الفني في القرن الرابع الهجري فأحدث حركة نقدية وبما أن طه حسين لا يحب تلميذه بل يكرهه ويستثقل ظله ولم يترك فرصة للحط من قيمته في ظروف ومناسبات عدة تنبئ عن هذا الشعور.

في اللغة والأدب قبل دراسة علوم الحقوق. ذكر لي فؤاد سراج الدين أنه كان لا يذاكر علوم الآداب وكان يُعطي زكي مبارك زجاجة كولونيا فينجح في الامتحان".

قال طه حسين: "زكي مبارك ـ رحمه الله ـ كان يشتم كل الناس وقد تخصّص في شتمي" وفي مرة من المرات أحضره نجيب الهلالي، وكان وزيراً للمعارف ـ وكنتُ موجوداً عنده وطلب إليه أن يكفّ عن شتم الناس والسخرية منهم فوافق على شرط، وسأله نجيب الهلالي عن هذا الشرط فقال:

"أن نستثني الدكتور طه حسين وتسمح لي بشتمه.. فقلت لنجيب الهلالي: أرجوكَ اسمَح له بهذا"...

ازدادت حالة زكي مبارك تدهوراً وتدرجاً نحو الضياع واللاوعي فكثرت تهديداته الوهمية لمعاصريه، الأعداء منهم والأصدقاء قال: "إن الذين يعادونني لا يعرفون ما يصنعون إنهم يجهلون أن الهدوء يفسد أمعائي ويحوجني إلى زيارة الطبيب، سترون إن امتدت الخصومة بيني وبينكم كيف أسقيكم كأس الهلاك، وكيف أوردكم موارد الحتف، وإن اعتصمتم بشاهقات البروج". وقال معبراً عن شعوره بالفراغ المطلق والعجز القاتل عن الإنتاج قال: "إنني أدفع ثمن العلم الذي حصلت عليه، لقد استهلكت إنشاءاتي الكمية الوزنية للعقل الذي

ساعدني على أن أجعل من نفسي مجموعة دكاترة في مختلف الفنون الأدبية، أجل استهلكت دراساتي ومؤلفاتي ما كان لديّ من ذلك قبل الأوان، وأنا اليوم بَرِمٌ، ضيق الصدر، لأني أريد مواصلة البحث ولكني لا أجد لديّ قدرة على ذلك. ماذا يكون الكاتب أو المفكر إذا كفّ عن الإنتاج؟ هل يكون شيئاً أكثر دُبالة إنسان في عقب أديب، وهل أرضى بمثل هذه المكانة؟".

أراد مبارك في نهاية المطاف أن يفرغ ما في نفسه بصرخة أخيرة فيها كل معاني الحقد على البشر: "قال مفتخراً بنقده وكيل وزارة: "ذهبت روحه، بل ذهبت ريحه، وأنا الذي قتلته وكفنته وواريته التراب" ثم زاد قائلاً: "لقد طويته ونشرته، وهكذا أراد لنفسه، لأنه جحد حقي وتعرض لسخطي، على أني أكرمته بهذه الميتة الأدبية الرقيمة، من يمت بسيف زكي مبارك ناله شرف عظيم..".

ومما يلفت الباحث أن مؤلفي كتب الأدب العربي الحديث تحاشوا أو تعمدوا في أبحاثهم ومصنفاتهم ذكر زكي مبارك، وكذلك الصحافة الأدبية المعاصرة كانت تشير إليه على استحياء، وكثير من التحفظ والحرج، وكأنّه كان يتوقع هذا الإهمال المقصود بعد مماته قال: "أخشى ألا

أظفر بكلمة رثاء يوم يشيعني الناس إلى قبري، فذاكرة بني آدم ضعيفة وهم لا يذكرون إلا من يؤذيهم، أما الذي يخدمهم في سبيلهم فلا يذكره أحد منهم بالخير إلا وفي كلامه نَبرة تشير إلى أنه يتصدق بكلمة المعروف".

وقد صحّ ما توقعه زكي مبارك فقد نسيه الناس وأهمله المؤلفون، عن عمد أو غير عمد، كما فعل الدكتور شوقي ضيف الذي ألّف كتاباً عن الأدب العربي المعاصر في مصر (1850 ـ 1950) ولم يذكر زكي مبارك. وهذا الأستاذ أنيس الخوري المقدسي ألف كتاباً ضخماً عن "الاتجاهات الأدبية في العالم العربي المعاصر". أعادت طبعه الإدارة الثقافية في الجامعة العربية ورأت فيه مؤلفاً نفيساً وثمرة تحقيق علمي دقيق. لم يذكر زكي مبارك مع أنه ذكر وتوسّع وأثنى على من هم أقل شأناً"...

وكذلك فعل طلاب أحمد أمين وأصدقاؤه وزملاؤه حين أقاموا حفلة بمناسبة الذكرى الأولى لوفاته (30 مايو 1955) فتكلموا عن نواحي حياته وشخصيته وأدبه فلم يتعرض أحدهم للجدل الذي قام بين أحمد أمين وزكي مبارك والذي شغل الرأي العام المصري والعربي طوال عام كامل.

وكان زكي مبارك يقابل ذلك بالشكوى المريرة والحزن المكبوت: "إن الفضل في مصر ذنب من لا ذنب له، وهذا هو وطني فلو كنت اتّجرت بالتراب لصرت من أكابر الأغنياء، ولكن شغلت نفسي بما لا يفيد.. ألفت اثنين وأربعين كتاباً، واشتغلت بالتدريس عشرين سنة وكادت صراحتي تقطع رزقي "واسترسل في الشكوى قال: "أخرجني الوزير العشماوي من عملي بوزارة المعارف، وأخرجني السنهوري من عملي بوزارة المعارف، وكانت النتيجة أن أبيع أملاكي في سنتريس لأنفق على أولادي".

أصيب زكي مبارك خلال السنوات الخمس الأخيرة من حياته بالكآبة واليأس والانحطاط النفسي والذهني، ثم ازدادت حالته سوءاً مع تقدم العمر فشرع يهدد معاصريه ويحملهم مسؤولية عدم اعترافهم بموهبته ومقامه الأدبي وصار يكثر من التهديد تارة، والندم على ما فرط منه نحو أصحابه، والافتخار والتبجح الفارغ بما كتب وألف أخرى، فمن أقواله عن كتابه "النثر الفني في القرن الرابع الهجري": "إنه أروع روائع الكتب التي تمخض عنها القرن العشرون.. وستنهدم السوربون وغيرها من جامعات فرنسا بل جامعات العالم حجراً حجراً ويبقى اسم زكي مبارك وكتابه "النثر

الفني" ولقد كنت هناك في فرنسا مهوى أفئدة الناس من مستشرقين وغير مستشرقين من رجال ونساء فواتن كنّ يعشقن فتى سنتريس..".

كانت نهاية زكي مبارك محزنة، وهو الذي حلم بالمجد الأدبي، والتفوق الفكري على أدباء الطليعة منذ هبط القاهرة، فجدّ وكدّ وسهر الليالي وهو عاكف على كتبه وأوراقه يقرأ ويبحث ويؤلف، فما تحقق له ما أراد، فقد انحدر، وهو في المرحلة الأخيرة من حياته في هوّة اليأس والعجز لما لقيه من صدود وتجاهل من أهل عصره بعد أن سلّط عليهم لسانه وقلمه وافتعل معهم المعارك والسّجال، ولما ضاقت عليه الدنيا برحبها أخذ يعاقر الخمرة التي وجد فيها كما قال: "مخبأً وملاذاً أقضي فيه ما بقي من ثمالة العمر، أدفعُ ثمن العلم الذي حصّلته" وصار وهو ينحدر إلى الهاوية، بعد أن صمت وعجز عن الكتابة والقراءة يقضي الساعات والليالي الطوال في المشارب والحانات ومواطن اللهو والمجون وكان إذا صحا لفترة قضى وقته في تأملٍ فارغ ثم يعود إلى الشراب التماساً للغيبوبة التي تنسيه واقعه الأليم والهروب من أوهامه وأحلامه والأشباح التي تطارده وكأنه كان يعمل بوصية النواسي حين قال:

إذا خطـــرت ببالـــك الهمـــوم فـــداوها

بكأســـك حتـــى لا تكـــون همـــوم

أو قوله:

ولا تحسـبنَّ عُقـارَ خابيـةٍ والهـمَّ يجتمعـان في صـدرِ

وعلى ذكر الصراع بين زكي مبارك وأحمد أمين مؤلف كتاب (جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي) روى زكي مبارك، أو رُوِيَ عنه وقائع جلسة طريفة خيالية واقعية جرت يومئذٍ في منزل الدكتور طه حسين ضمّت شيوخ الأدب واللغة والنقد وكبار الأساتذة الجامعيين طرحوا فيها الحرج والوقار والحشمة بعيداً عن أبصار وسمع الجماهير وفضول وسائل الإعلام. وفي هذه الجلسة إذا صحت، تصوير لأخلاق الأدباء ونفسياتهم وسلوكهم تجاه الخصومات والمعارك الأدبية الخاصة والعامة.

قال زكي مبارك: "في مطلع الصيف كنتُ على موعد مع الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين لأقدم إليه نسخة من كتابي "ليلى المريضة في العراق" لأقرأ معه صفحات من ذلك الكتاب، ولكني حين وصلت في الموعد المحدد لم أجده في البيت، وفي اليوم التالي سألت عنه في التلفون لأعرف كيف

أخلف الموعد، فاعتذر بلطف وأكد أنه نسي ذلك الموعد كل النسيان، ودعاني إلى تجديد الموعد فقلت: "إني أتأهب للسفر إلى بغداد وسأتشرف بمقابلتك حين أعود... وكنت آنسُ بلقائه بعد أن رجعت من بغداد، ولكني خشيت أن يكون أخلف الموعد الأول متعمداً، ثم سافر الدكتور طه إلى باريس.. وكنت في تلك المدة شرعت في الهجوم على الأستاذ أحمد أمين وندّ القلم فوقعت منه غمزات تمس الدكتور طه حسين من دون موجب وكذلك استوحشت من المضي للتسليم عليه حين رجع من باريس، ثم عدتُ فقررتُ أن أودّي الواجب في تحية الدكتور طه.. بلغتُ منزله وكنت أرجو أن أجده وحده، لأني وصلت بعد الساعة التاسعة وهو عنده وقت هدوء، ولكن يظهر أن قدومه من السفر رفعَ الحجاب فكان منزله في أنسٍ بجماعة من أهل الفضل هم الأساتذة: شفيق غربال، وعبد الواحد خلاف، ومنصور فهمي، وعلي عبد الرازق، وسعيد لطفي، وأمين الخولي، وتوفيق الحكيم، وعبد الوهاب عزام، وإبراهيم مصطفى، وعبد الحميد العبادي، وبعد لحظة حضر الأستاذ أحمد أمين فنهضتُ ووقفنا لمصافحته ولكنه زوى وجهه وتجاهل وجودي، ورأيت المقام لا يتسع لمحاسبته على ما صنع فتكلفتُ الابتسام وأنا مغيظ.

وخطر في البال أن حضوري قد يعكر المجلس وأن الخير أن أنصرف ثم تذكرتُ أني أحق الناس بمودة الدكتور طه حسين وإن حالت الدسائس بيننا حيناً من الزمن، فقد كنت صديقه الحقّ قبل أن يعرف أصدقاء اليوم فكيف أخرج من منزله ليخلو الجو لصديق مثل أحمد أمين؟ يجب أن أقضي السهرة كاملة، وعلى من يؤذيه حضوري أن يتفضل بالانصراف.

وبعد أن دارت السجائر على الزائرين شرع الأستاذ أمين الخولي في الحديث:

ـ أمين الخولي: يا زكي ما تترك أبداً أخلاق المنوفية؟

ـ طه حسين: وما أخلاق المنوفية؟ زكي مبارك مشاغب؟ قل كلاماً غير هذا يا أمين فما عرف الناس زكياً إلاّ مثال اللطف والأدب والذوق.

ـ علي عبد الرازق: يظهر أنك راض عن الدكتور زكي مبارك.

ـ طه حسين: وهل أملك غير ذلك؟

ـ زكي مبارك: تملك كلمة النصح يا سيدي الدكتور إن رأيت ما يوجب كلمة النصح.

ـ طه حسين: لا يا عم يفتح الله...

ـ زكي مبارك: يظهر يا سيدي الدكتور أنك غضبان.

ـ عبد الواحد خلاف: لعل الدكتور يشير إلى مقالاته في مهاجمة الأستاذ أحمد أمين؟

ـ أحمد أمين: أنا أحتج على إثارة هذا الموضوع في هذا المجلس.

ـ عبد الواحد خلاف: نحن نحاول تصفية القلوب.

ـ أحمد أمين: أنا أحتمل كل شيء إلاّ التعرض لنبالتي..

ـ طه حسين: هل تعرّض زكي مبارك بشيء إن هذا لو صح لكان خروجاً على شرعة العقل.

ـ أحمد أمين: لقد تعرض لنبالتي بأشياء.

ـ إبراهيم مصطفى: إن الدكتور زكي لم يتعرض لنبالتك يا حضرة الأستاذ.

ـ زكي مبارك: فما كنت أعرف أن الأستاذ أحمد أمين فوق النقد، ولا كنت أظن أن التعرض لتفنيد آرائه يُعد هجوماً على قدسيته الذاتية.. فهل تعتقد يا أستاذ أني تجنّيت عليك؟

ـ أحمد أمين: ليس لي كلام، ولا أريد الخوض معك في نقاش وأنت حر فيما تنشر من زورٍ وبُهتان...

ـ زكي مبارك: زور وبهتان؟ وهل من النبالة أن تنطق بهذه الكلمات في هذا المجلس؟

ـ منصور فهمي: لاحظ يا زكي أنك جرحت الأستاذ أحمد أمين، وأن من حقه أن يعلن غضبه عليك، والنفس الإنسانية معرضة للرضى والغضب والفرح والترح والرجاء والقنوط فالأستاذ أحمد أمين يعبر تعبيراً طبيعياً عن السريرة الإنسانية.

ـ زكي مبارك: وكيف يكون الحال لو استبحت من التعبير ما استباح؟

ـ أحمد أمين: هل تورعّت عن شيء؟ وإن مقالاتك عني هي الشاهد الحي على مبلغ أدبك.

ـ زكي مبارك: وأنا راضٍ عما قلتُ فيك وما قلتُ إلاّ الحق والصدق وأنا أنتظر أن يغضب الله عليك فيجازيك على سوء ما صنعت في تحقير ماضي الأدب العربي.

ـ طه حسين: إيه الحكاية؟

ـ أحمد أمين: الحكاية أن زكي مبارك يقول: "إن طه حسين جاهل وأن أحمد أمين جهول".

ـ طه حسين: خبر أسود!..

ـ سعيد لطفي: أنا كنت أظن أن المسألة مُزاح في مزاح، وأين نشر الدكتور زكي هذا الكلام المزعج؟

ـ أحمد أمين: نشره في مجلة (الرسالة) وعند الزيات، "الرسالة" التي خلقتها بقلمي.

ـ زكي مبارك: والزيات الذي سوّيته بيديك؟

ـ طه حسين: سأقرأ المقالة في هذه الأيام، فإن رأيتُ فيها أني جاهل وأن أحمد أمين جهول فستكون وقعتك يا زكي زي الزفت..

ـ إبراهيم مصطفى: قرأتُ تلك المقالات مرّات.

ـ طه حسين: قرأتها بالقراءات السّبع؟

ـ إبراهيم مصطفى: أريد أن أقول إني قرأتها بعناية.

ـ طه حسين: طبعاً، صاحبنا زكي مبارك يتوهم بأن الخلود لن يكون إلاّ من نصيب من يتعرض للناقدين والباحثين في مقالاته ومؤلفاته بالقبيح أو الجميل، وأشهد أنه سل سخائم صدري يوم قال إنه لا يهجم عليّ إلا ويعتقد أن الهجوم معناه (بونجور)...

ـ زكي مبارك: لن أتركك بعافية يا أستاذ أحمد أمين أو تكف شرّك عن الأدب العربي.

ـ أحمد أمين: وما شأنك بالأدب العربي؟ وما هي خدماتك لهذا الأدب الذي تقول إنك تغار عليه كما تغار على عرضك؟

ـ زكي مبارك: يكفي أني من تلامذة طه حسين...

ـ طه حسين: العفو.. العفو.. إني والله راضٍ بأن تكون من أساتذة طه حسين.

ـ زكي مبارك: يا سيدي الدكتور..

ـ طه حسين: تقتلني حين تقول "سيدي الدكتور" وأنت ترى أني جاهل وأحمد أمين جهول.

ـ علي عبد الرازق: لم أشهد في حياتي أروع من هذا الحوار وهو يستحق التسجيل.

ـ أحمد أمين: أرجو أن تعفوني من هذه المطايبات فلولا مراعاة المقام لانصرفت.

ـ طه حسين: أؤكد لك أن الدكتور زكي لم يقصد إيذاءك فيما كتب عنك ألم تر كيف احتملته سنين وهو يلج في اتهامي بالجهل.

ـ زكي مبارك: لم أتّهم سيدي الدكتور بالجهل المطلق، معاذ الله، وإنما اتهمته بالجهل بالقياس إلى المسيو (برونو) والمسيو (دي لاكروا) وقد توليا عمادة كلية الآداب في باريس.

ـ أمين الخولي: كلام طيب يا فتوة المنوفية، فلا مانع عند الدكتور طه حسين من أن يكون في باريس من هو أعلم منه، فقد تخرج في مدينة النور وهو يثني على أساتذتها في كل حين، ولكنك اتهمت أحمد أمين بالعامية الفكرية فما هو المخرج من هذا الاتهام الفظيع؟

ـ زكي مبارك: لم أتهم الأستاذ أحمد أمين بالعامية المطلقة ولكن بالقياس إلى الشيخ خربوش..

ـ طه حسين: ومن الشيخ خربوش؟

ـ زكي مبارك: الشيخ خربوش عالم علامة لا يقاس إليه الأستاذ أحمد أمين.

ـ علي عبد الرازق: ألم أقل لكم إن هذا الحوار يستحق التدوين؟

ـ عبد الواحد خلاف: هذا الحوار ينفع في تهدئة أعصاب أحمد أمين، فقد بدأ يبتسم، ولكن المهم هو الاستفادة من هذا المجلس في تغيير المذهب الأدبي للدكتور زكي مبارك، فهو أقدر أدبائنا جميعاً على إحداث الضجّات الأدبية ولكنه لا يوجّه نشاطه إلى ما يُفيد، ولا أدري كيف رجع سليماً من العراق.

ـ زكي مبارك: وبمَ تشير أيها السيد؟

ـ عبد الواحد خلاف: أشير بأن تعود سيرتك يوم كنت تؤلف في النثر الفني والتصوف الإسلامي، فتوجه مجادلاتك ومصاولاتك إلى القدماء.

ـ طه حسين: الأمل بعيد في توجيه الدكتور زكي إلى ما يفيد وينفع.

ـ زكي مبارك: يا سيدي الدكتور..

ـ طه حسين: فلقتني يا أخي بالعبارة (سيدي الدكتور) وقد تحيّرت في أمرك فأنت في المجلس رجل لطيف، ولكن حين تخلو إلى قلمك تنقلب إلى شيطان مريد..

ـ أمين الخولي: دافع عن نفسك يا زكي فإني أخشى أن ينهزم فتوة المنوفية.

ـ زكي مبارك: لي كلمة يا سيدي الدكتور، ولا تؤاخذني بالحرص على هذه العبارة فقد حضرت دروسك بضع سنين ولا أستبيح الهجوم عليك..

ـ طه حسين: ألم أقل لكم إن زكي رجل..

ـ زكي مبارك: أشكر لك هذا اللطف يا سيدي الدكتور، ثم أقول أني تلقيتُ عنك مبادئ الظلم والاعتساف.

ـ عبد الوهاب عزام: أيوَ يا عم زكي، هات ما عندك هات..

ـ زكي مبارك: تذكرون المناوشة التي قامت بين الدكتور طه حسين والدكتور منصور فهمي على صفحات الأهرام سنة 1921.

ـ منصور فهمي: أية مناوشة؟ ذكّرني فقد نسيت.

ـ زكي مبارك: كنت يا سيدي الدكتور أثنيتَ على أسلوب المنفلوطي فهاج الأستاذ طه حسين ودعاك إلى أن تسمي الجمل جملاً والأرنب أرنباً أو كما قال ومعنى ذلك أن المنفلوطي ليس بكاتب ولا أديب.

ـ طه حسين: ثمّ...

ـ زكي مبارك: ثم جاء الأستاذ الكبير طه حسين الذي أنكر أن يكون المنفلوطي كاتباً أو أديباً فاعترف بأن الأستاذ أحمد أمين كاتب وأديب وسمح بأن يُدرّس أسلوبه على طلبة السنة الأولى بكلية الآداب.

ـ طه حسين: ما هذا الحشيش؟

ـ زكي مبارك: أنا لم أذق الحشيش قط، ولكني أؤكد أن أسلوب أحمد أمين يُدرّس في كلية الآداب.

ـ طه حسين: هذا مستحيل...

ـ أحمد أمين: الكلية تدرّس أساليب المعاصرين جميعاً..

ـ زكي مبارك: إنك كاتب؟ ولك أسلوب؟

ـ منصور فهمي: احترس يا زكي من الخروج على أدب الخطاب.

ـ أحمد أمين: ليتكم صدقتموني حين قلت إن زكي مبارك لا ينقد الباحث نقد العالم للعالم وإنما ينقده نقد المصارع للعالم.

ـ زكي مبارك: وأنت عالم يا أستاذ؟ وهل يكال العلم أيضاً بمكيال؟

ـ توفيق الحكيم: أنا والله شديد الحسرة على ما وصلنا إليه، فقد كنت أحسب أن تكون بين الأدباء صداقات عظيمة كالذي يعرفه الأدباء العظام في باريس ولندن وبرلين.

ـ طه حسين: إن ذهني لا يسيغ القول بأن النقد يفسد ما بين الأصدقاء.

ـ شفيق غربال: أعتقد أن الدكتور زكي رجل طيب القلب وقد قرأتُ مقالاته عن الأستاذ أحمد أمين بارتياح وجنيت منها كثيراً من الفوائد الأدبية، ولو أنه نزّه قلمه عن

بعض العبارات التي جرت مجرى السُّخرية من الأستاذ أحمد أمين لما استطاع أحد أن يوجه إليه أيّ ملام.

ـ توفيق الحكيم: ولهذه المقالات مزيّة أخرى غير الفوائد الأدبية، فقد بغضتني في الجوّ الأدبي عندنا وحبّبتْ إليّ قضاء الصيف في أوروبا ولم أرجع إلا بعد أن ظننت أنها انتهت، ثم كانت حسرتي شديدة حين رأيت أن زكي مبارك لا يزال يبدئ ويعيد في شرح جنايات أحمد أمين، ولولا الحرب لرجعت من حيث أتيت، فمن أين يجد زكي مبارك كل هذا الكلام الطويل العريض؟

ـ شفيق غربال: المسؤول عن هذه المتاعب هو الأستاذ أحمد أمين.

ـ أحمد أمين: أنا المسؤول؟

ـ شفيق غربال: أنت مسؤول لأنك مضيت في بحثك طول الصيف وهيأت المجال للدكتور زكي مبارك، والذي يقدّم الوقود للنار لا ينكر عليها الاشتعال.

ـ طه حسين: هل أفهم من هذا أن الجو الأدبي عرف الحياة في هذا الصيف؟

ـ زكي مبارك: يكفي يا سيدي الدكتور أن تعرف أن الأستاذ أحمد أمين نقل مكتبته إلى الإسكندرية في هذا الصيف ليجد الشواهد تحت يديه وهو يردّ عليّ.

ـ أحمد أمين: أنا رددتُ عليك؟ وهل قلتَ كلاماً يُردّ عليه؟

ـ زكي مبارك: الله يعلم كيف شغلتُ قلبك وعقلك، وكيف قهرتُك على مراجعة المؤلفات الأدبية والمصنفات الفقهية. وهل تستطيع يا أستاذ أن تقول إنك تجهل منزلتي الأدبية؟

ـ أحمد أمين: إنّ مقالاتك في الهجوم عليّ زهدّت القراء في علمك وأدبك.

ـ شفيق غربال: سمعتُ غير هذا، سمعت أن مقالات الدكتور زكي مبارك في الهجوم على أحمد أمين دلّت على اطّلاع فائق وتفكير عميق، وسمعت من يقول إنّه لم يعرف قيمة زكي مبارك إلاّ بفضل هذه المقالات.

ـ منصور فهمي: وهذا يشرح جانباً من عقلية المجتمع، فالجمهور يعرف زكي مبارك الناقد ولا يعرف زكي مبارك المؤلف لأنه ينقد وهو ثائر ويؤلف وهو هادئ.

ـ طه حسين: زكي مبارك يصطنع الثورة في كل شيء حتى التأليف، ولكن ثورته في مؤلفاته لا تلفت نظر الجمهور لأنها في الأغلب متصلة بالقدماء، والهجوم على القدماء لا يثير تطلع الناس إلا حين يمسّ العقائد من قرب أو من بعد كالذي وقع يوم ظهر كتاب "الشعر الجاهلي".

ـ زكي مبارك: من أجل هذا حرص سيدي الدكتور على تغليظ بعض الألفاظ ليوجّه الأنظار إلى كتابه النفيس..

ـ طه حسين: وبعدين لك يا دكتور زكي...

ـ زكي مبارك: لا بعدين ولا قبلين، ولكني أحب أن أعرف كيف تكون الصراحة حلالاً في وقت وحراماً في وقت، وكيف يحل لسيدي الدكتور ما يحرّم على سائر الناس؟

ـ طه حسين: إني أرجو ألا يبعد اليوم الذي ترجع فيه عن شططك وجموحك.

ـ منصور فهمي: نرجو أن يكف زكي مبارك عن العدوان، وأظن أن الأستاذ أحمد أمين صفت نفسه وطابت.

ـ زكي مبارك: هل تصافينا؟

ـ أحمد أمين: لن نتصافى أبداً بعد الذي كان.

ـ زكي مبارك: يظهر أنك تستروح بالهجوم عليك، وسأخيّب ظنّك فأسكت عنك بعد ثلاث أو أربع مقالات...

ولكن هذا لم يمنع زكي مبارك من الندم، فيما بعد، على مهاجمته أحمد أمين وهدم آرائه الأدبية بأسلوب لا يخلو من براعة وتقص للحقائق في الدفاع عن التراث العربي. قال: "إني استوحشتُ مما صنعت، والاعتراف يهدم الاقتراف وليس من الكثير أن أرجو عفوه وأن يتجاوز عن سيئاتي إنه ـ والله المثل الأعلى ـ غفور رحيم".

نظم زكي مبارك الشعر كغيره من أدباء عصره وكان يعتقد أنه أذكى الناس وأقوى الناس وأنه "مفتون بنفسه أشدّ الفتون" جمع شعره في ديوان طبع سنة 1933 وأهداه إلى "تلك الفتاة التي خفق لها القلب أول خفقة" وقال فيها أول قصيدة: وسكب عليها أول دمعة، "وهي الفتاة التي تنام في قبر مجهول تحت سماء سنتريس".

كان زكي مبارك في أول عهده يكثر من نظم الشعر "ويكيله بالمكيال" شأن النظامين الذين يجتهدون في حفظ واختزان ما يحلو لهم من شعر القدامى والمحدثين زدْ على ذلك ما عُرف به من عصبية واستعجال في دخوله عالم الأدب والشهرة ثم ما لبث أن عاد، بتأثير من أستاذه في الأزهر سيّد

المرصفي، إلى الإقلال من النظم وانتهى به الأمر إلى هجر الشعر تماماً لأنه رأى أن "الشعر أصغر من أن تقف عنده همّته الطاغية" وانصرف إلى الدراسات الأدبية والفلسفية بحماسة عاتية"!.

لزكي مبارك أبيات ومقطوعات قصيرة منها المقبول ومنها التافه المرذول عبر بها عن حالاته الوجدانية وأهوائه العارضة والمستقرة. ولعل أجود ما نظم في أواخر حياته (1952) قصيدة عنوانها "مع الجميل سبحت"، نظمها في مدينة الاسكندرية أوحتها كما يقول "سمكة إنسيّة لا بحريّة" لأنه مغرم بصيد السمكات في مدينة الأسماك "وخلاصة القصة أن "سابَح فتاةً فسَبحَها والبحرُ يضرب أمواجاً بأمواج قال:

مع الجميل سبحتُ ... وفي صباه لعبتُ

لا تعجبوا من ضلالي ... إني سكرتُ سكرتُ

ولا تطيلوا ملامي ... فما بهذا أثمتُ

عرائس البحر نادت ... صبابتي فأجبتُ

إن المحبّين قبلي ... قد اهتدوْا وضللتُ

الرشد ليس بشيء ... والحق فيما غويتُ

والعقــل شـــيء ســـخيف فبالجمـــــال جُننــــتُ
ـِفـ البحــر والمــوجُ عــاتٍ ســـبحت حتـــى تعبـــتُ
ســـابقت فيـــه الصـــبايا بـــالعوم ثـــم ســـبقتُ
بضّـــاءَ تُلـــهم روحـــي ـِفـ حبهـــا الحــدَّ ســـبتُ
مـــن اليهـــود تراهـــا؟ مــن النصــارى؟ جهلــتُ!!
عيونهـــــا واعــــــداتُ بقبلـــــةٍ إن صـــــحوتُ
وكيــف يصــحو فــؤادي ومـــن ســـناها شـــربتُ
جســمٌ مــن النــور صــافٍ تغـــارُ منـــه الكميـــتُ
لـــولا الحيـــاء وديـــنٌ ـِفـ ظلـــه قـــد نشـــأتُ
لقلـــت حـــين أراهـــا إنـــي بـــديني كفـــرتُ
لو كنت ـِفـ الشـط وحدي ســــرقتها ومضـــــيتُ
هـــذي عيـــونٌ ترانـــا مــن لؤمهــا أنــا خفــتُ
إن الجواســـيس حـــولي ـِفـ أيّ أرضٍ حللـــــــتُ
فليســمعوا كيــف شــاؤوا فلــي إلى الحســن صــوتُ

كـــان الجمـــال طعـــامي وخمرتـــــي إن ظمئـــــتُ
إنـــي إلى الحســـن صَـــابٍ أشـــــتاقه مُـــــذ وُلـــــدتُ
مـــن نـــار قلـــبي تعالـــت نـــــارٌ لرأســـــي فشـــبتُ

أديبة القرن العشرين[1]

تعد الأديبة كوليت الكاتبة الفرنسية من أبرز الأديبات في القرن العشرين، فهي التي تسلمت مشعل المجد والشهرة من الأميرة الشاعرة آنادي نواي فكانت أكبر شاعرات النثر في زمانها.

ولدت كوليت في الريف في قرية سان سوفور الواقعة في منطقة البورغونيا سنة 1873 من أم عرفت بالطيبة وسلامة القلب، وأب ضابط عرف بالشجاعة والحزم والميل للجدل وبراعة النكتة، وكان لهذه المنطقة أثر في أدب كوليت وحبها للطبيعة والحيوان، فهي بنت الحقول والغابات والبساتين والأنهار والجداول، ومريدة لا شعورية لجان جاك روسو سيد الرومانتيكيين وممجد الطبيعة وداعيتها الأكبر، حتى إن

(1) كوليت: أديبة فرنسية (1873 ـ 1954) أشهر الأديبات الفرنسيات في النصف الأول من القرن العشرين. بلغت آثارها الأربعين أودعتها تأملاتها ومذكراتها عن حياة الناس وعالم الحيوان على السواء.

كثيراً من أبطال رواياتها يشبهون أبطال روسو في عبادتهم للطبيعة وحنينهم إليها وسط أجواء الحضارة القاسية، فكوليت قروية لم تنسها حياة المدن ومباهجها ومغرياتها وضوضاؤها طعم الأرض، والنزوع إليها. وسعادة الحياة الريفية، نعم إن باريس وجواءها الفنيين عملا على صقل ملكاتها العقلية، ورفدا مزاجها بأحاسيس ومشاعر وصور شتى، إلاّ أنها بقيت ريفية في أعماق نفسها، ولهذا عكست آثارها ظاهرتين متناقضتين هما سر حلاوة أدبها: رقة الحضر وصلابة الريف.

أدخلت كوليت في السنة الرابعة مدرسة القرية، فكانت أقوى التلميذات مواهب وأشدهن مراساً، وما لبثت فيما بعد، أي بعد مضي عشر سنين أن سيطرت بمواهبها المتزايدة على جميع بنات القرية، وصفت نفسها فقالت: "كنت لفرط كبريائي، وشعوري بنضج شخصيتي المتفتحة أطأ الأرض بقدميّ الصغيرتين عجباً وتيهاً، فما أعظمني من ملكة.. كنت في الرابعة عشرة جهيرة الصوت، تدلت على كتفي ضفيرتان طويلتان تتوسان كسوطين مفتولين، وكانت يداي حمراوين مسلوختين، مخدّشتين تعلوهما الندوب والجروح، ولي جبهة مربعة كجباه الصبيان تخفيها غرة متدلية حتى الحاجبين".

عاشت كوليت بنت الأرض، والقرية البسيطة المعقدة، والحيية الجريئة معاً حتى العشرين من عمرها في ظلال الريف، وظلت باستثناء رحلتين قصيرتين إلى بروكسل وباريس مقيمة في قريتها، وفي هذه القرية ذاتها جاءها بشير الحب، بل نذيره في زي رجل باريسي أنيق فانتزعها بسرعة من عالم القرية الضيق الهادئ إلى عالم باريس الواسع الصاخب.

كان هذا الرجل واسمه هنري فيللار، ولقبه ويللي، ذا مقام معروف في الحياة الباريزية، كان صحفياً ممتازاً وعالماً بالموسيقى، إليه يرجع الفضل في الدعوة للموسيقى الفاغنرية في فرنسا، ولم تكن كوليت قد تجاوزت بعدُ العشرين عندما اقترنت بهذا الأديب الذي يكبرها بأربعة عشر عاماً، ويفوقها مهارة وخبرة بالحياة فاستقر الزوجان في باريس فانتقلت كوليت بذلك فجأة وعنفاً دون تمهيد أو تحضير من الريف البسيط إلى حياة الملاهي والمسارح وردهات الموسيقى وبيئات المجون التي تلون عاصمة كبرى كباريس، وسرعان ما تكيّفت هذه القروية النقية والحياة الباريزية، وأصبحت لزوجها مساعداً في أعماله، بل معيناً لا ينضب، بل منجماً من الذهب، وكان ويللي أدرك بثاقب فكره قيمة زوجته المادية فأشار عليها، أن يتعاونا على العمل الأدبي، ومن هذا التعاون

نشـأت سلسـلة كتـب "كلـودين في المدرسـة، وكلـودين في باريز، وكلودين والحياة الزوجية.. إلخ".

ظهر الأول منها عام 1906 باسم ويللي فقط، ولم تكن كوليت قد مارست صنعة الكتابة بعد، إذ قال لها ويللي بعد سـنتين مـن زواجهمـا: "يجـب عليـك يـا كوليـت أن تـدوني ذكرياتك عن المدرسة الابتدائية، ولا تخافي مما قد يرد فيها من العبارات الفجة فباستطاعتي أن أستخرج منها أشياء ذات قيمـة". فكانـت كوليـت تحضّـر مـادة الكتـاب مسـتعينة بـذكرياتها اللذيـذة المحشـوة باللهجـة الريفيـة المحببـة فيزيـد عليها ويللي النكات والنوادر والملح ذات الطابع الباريزي.

وقد نالت هذه المجموعة رواجاً عظيماً، واستأثرت بالفئة الممتـازة مـن المثقفين، وقـد ذهـب مؤرخـو الأدب في تعليـل هـذا الـرواج فاسـتقر رأيهـم علـى أن الأسـلوب الكتـابي عـام 1900 كان يسوده التأنق والتزويق وشيء كثير من التصنع فجابهت كوليـت هـذا التيـار بآثارهـا الجديـدة وطلعـت علـى النـاس بأسلوب جديد يمتاز بالبساطة في التعبير والصراحة في القول وتصـوير المشـاعر بصـدق وإخـلاص غـير مـألوفين، فقـد بـدأت مـثلاً كتابهـا الأول بقولهـا: "اسمـي كلـودين، وأقطـن قريـة مونتيني، وولدت فيها عام 1884، ومن المرجح ألا أموت في هذه

القرية ذاتها، ويقول كتابي الجغرافيا: إنها بلدة جميلة، صغيرة عدد سكانها ألف وتسعمئة وخمسون نسمة، بُنيت على شكل مدرج على نهر التيز، أنا لا تهمني هذه الأوصاف، فأولاً ليس هناك ما يسمى بنهر التيز، وإن كان من المنتظر أن يجتاز القرية تحت ممر القطار، ولكنك لن تجد فيه من الماء في أي فصل من فصول السنة ما يكفي لغسل رجلي عصفور، أما قولهم في أنها بُنيت على شكل مدرج، فإني لا أراها هكذا، فهي في رأيي عبارة عن بيوت تتدحرج من أعلى الجبل إلى سفح الوادي... وهي ليست بلدة بل قرية، وطرقها ولله الحمد غير مبلّطة تجتازها مياه الأمطار في سيول صغيرة على أن تجف بعد ساعتين من هطولها...

إنها قرية ليست جميلة جداً ومع ذلك فإني أعبدها".

وتمضي كوليت بأسلوبها الرائع الجذاب في وصف بلدها وغاباته ذات الأشجار المتطاولة الباسقة إلى أن تقول: "لقد عشت في هذه الغابات عشر سنين قضيتها في تشرد وتجوال جنونيين وسعي وراء المجهول، وفي اليوم الذي يقدر لي أن أغادرها فسيعتريني غم وحزن شديدان".

ولم تقتصر كوليت على وصف الطبيعة وجمالها وإنما تعدته إلى وصف محيطها، وما يدور في فلكه من شخصيات

متنوعة ملؤوا عالمها واطلعت على دخائلهم وأسرار نفوسهم وحركاتهم وسكناتهم فعرضتهم بأسلوبها التأثري كما تعرض نماذج الأحياء في المتاحف الطبيعية: "فأناييس بنت طويلة القامة. لها شعر ليس بالأسود ولا الأشقر، وعينان سوداوان صغيرتان وبشرة صفراء، جامدة، باردة برودة الرخام، شريرة، كذوب، متلصصة، متملقة، خؤون، فيها كل الصفات التي تكفل لها النجاح في الحياة. "والتوءمان جوبيير ذواتا وجهين طريين، كامدين وعيون كعيون الخرفان الملأى بالوداعة الباكية" وماري بلهوم البلهاء تشبه بأنفها الساذج أرنباً جميلاً مذعوراً". قالت كوليت تصف معلمة اللغة الإنكليزية بأسلوبها المليء بالحرارة التي تميز الفتيات في هذه السن وتدفعهن إلى التماس الألفة والصداقات: "يخيل إليَّ أن معلمتي جديرة بالعبادة في هذه الأمسية لما بدت تحت مصباح المكتبة، فقد لمعت عيناها كعيون القطط الذهبية التي تشيع بالخبث والنعومة، فأنا معجبة بهما بالرغم من شعوري بأن ليس فيهما ما يوحي بالطيبة أو الصراحة أو الطمأنينة، ولكنهما كانتا تبرقان بريقاً عجيباً في وجهها النضر الجميل، وإني أعلم أن معلمتي راضية عن وجودها في هذه الغرفة الدافئة الصماء البعيدة عن الضوضاء، أحسست في قرارة نفسي بأنني على

استعداد لكي أحبها كثيراً وكثيراً من كل قلبي الولهان التائه.. لقد قبلتني.. فأخذت من فرحي أخرخر كالقطط، وفجأة ضممتها بعنف بين ذراعي حتى صاحت: كلودين.. لقد حان وقت الدرس..

آه ليذهب كتاب الإنكليزية إلى الشيطان، إني أفضل أن أريح رأسي على صدرها، لقد أخذت تداعب شعري وعنقي بأناملها، وكنت أسمع بأذني دقات قلبها، ما أسعدني معها، ومع ذلك يجدر بي أن أتناول قلمي وأتظاهر بالكتابة..".

وأسمعها تصف نفسها قبل قدوم الزائرين إلى المدرسة: "أخذت أتفحص أظافري وأصفف شعري المبعثر لأن زائري المدرسة سينظرون بلا ريب نحونا، نحن البنات اللواتي بلغن الخامسة عشرة، وإذا كان وجهي يوحي بأقل من سني، فإن جسمي يدل على بلوغي الثامنة عشرة، وشعري جدير أيضاً بأن يرى، لأنه يشكل جزة متحركة مؤلفة من حلقات يتغير لونها حسب الوقت بين الكستناوي القاتم والذهبي الداكن ويتعارض ولون عينيّ، ويتدلى شعري بالرغم من هذه الحلقات حتى خاصرتي، إذ لم أعد أضفر شعري لأن الضفر يسبب لي صداعاً ولا يتناسب وملامح وجهي، وإن كنت أحزمه عند اللعب لأنه يجعل مني فريسة بأيدي رفيقاتي، وأعقده من وراء

كذنب الحصان.. وبعد أليس أجمل هكذا.. بقيت عشر دقائق قبل نهاية الدرس، كيف السبيل إلى الاستفادة منها؟ طلبت الأذن للخروج، فأخذت في جمع قبضة من الثلج الآخذ في الهطول والعض عليها بأسناني، ما أطيبها.. وما أبردها.. على ما في هذه الثلجة الأولى من طعم الغبار، وأخفيت ما بقي في جيبي وعدت إلى الصف، فازدادت الحركات والإشارات من حولي، فأمررت الكرة الثلجية لرفيقاتي فصارت كل واحدة تعض منها بشغف ونهم باستثناء التوءمين الخبيثين جوبيرت..".

وهكذا صورت كوليت طفولتها المدرسية، ثم أتبعتها بوصف حياتها البيتية، تلك الحياة التي تعد ينبوعاً من ينابيع عبقريتها الغنية بالأحاسيس والتأثرات. فأودعت كتبها اعترافات قيمة تعد من روائع الأدب النسائي، ذلك أن البيت الذي عاشت فيه هو مرتع أحلامها وأيامها الجميلة الحلوة، والإنسان دائماً وإلى الأبد يحن إلى أيام طفولته ويصعّدها ويعدّها وإن لم تكن سعيدة قطعة من حياته الهنيئة يلجأ إليها كلما أضناه السير على درب الحياة، كما يلجأ المسافر التعب في الصحراء إلى ظل النخيل أو واحة الماء. تقول كوليت عندما عرض عليها أحد الأثرياء شراء بيتها حين ألجاتها الحاجة إلى بيعه ورده إليها لتقضي فيه ما بقي من أيامها: "إن هذا البيت

الذي ولدت فيه وعشت لا يزال موجوداً، كما أن الحديقة الفسيحة المحيطة به لا تزال موجودة أيضاً ولكن أنّى لهما ذلك السحر الذي كان يطوف في أرجائهما، بل ذلك السر الذي كاد يسود الضياء الساطع، والريح العبقة، والأشجار المرصوفة، والعصافير ودمدمة الأصوات الآدمية التي أسكتها الموت، ذلك عالم أصبحت لا أليق به ولا أستحقه".

في هذه الفترة الهامة من حياتها مرت كوليت بأدوار تكونت فيها شخصيتها الكتابية وتبلورت الأسس الأولى لمواهبها الفنية، فكل شيء في محيطها يساعد على تكوين هذه المواهب وتفتيح الشخصية ودفعها في طريق المستقبل والخلق والإبداع، فإن الطبيعة والمحيط والأجواء إذا تلاقت والمواهب الخيرة السمحة الخيرّة بالعطاء كوّنت جميعها ما يسمونه الأديب القائم أدبه على الأصالة والأخذ والعطاء. وقد أولعت كوليت منذ صغرها بالمطالعة، فما بالك بمن كانت تجلس قبل أن تتعلم القراءة والكتابة بين جزأين من معجم لاروس "كالكلب في مرقده" على حد تعبيرها، وعرفت في سن مبكرة جداً آثار كتاب زمانها، عرفت الفونس دوديه وميريمي وفيكتور هوغو، وإسكندر دوماس وغيرهم، وما كانت هذه المطالعات الدسمة لتمر دون حوادث تعترض قارئتنا

الصغيرة، صدف مرة أن قرأت خلسة في مكتبة أبيها كتاباً لأميل زولا زعيم المذهب الواقعي في الأدب يصف فيه على طريقته المكشوفة الدقيقة حالات الحمل والولادة وما يصحبها من تقطيع وتشويه وآلام فهالها ما قرأت وداخلها الفزع والدهشة فقالت: "لقد أحسست بسذاجتي، واعتراني ذهول، وشعرت أني مهددة في مصيري كأنثى صغيرة" تعني بذلك أنها وعت عن طريق الحدس المبهم مصيرها كمخلوق جعلته الطبيعة والمجتمع معاً في مستوى أدنى من الرجل، ولم يفت كوليت أن تنطق إحدى بطلاتها إزاء هذه الصدمة وما يعقبها من شعور الخيبة والنقص الذي يعتري كل فتاة تجتاز عتبة الفتوة إلى عالم المرأة والأمومة الواسعين: "تريدين أن تعلمي ماذا فقدت؟ فقد فقدت كبريائي الجميل، وشعوري الدفين بأني طفلة ثمينة، فقدت إحساسي العميق بوجود روح خارقة فيّ، روح رجل ذكي، روح جديرة بأن تفجر جسدي الصغير واأسفاه يا كلودين، لقد خسرت كل هذا عندما لم أصبح إلا امرأة..".

وكانت كوليت كلما عكفت على كتب الأطفال والأحداث لم تجد فيها ما يلهب إحساسها ويشبع نهمها إلى الهزات والخيال فترتد خائبة إلى كتب أعلى من مستواها

فتفهمها حسب عقليتها المبكرة، وقد بلغ شغفها بالمطالعة حداً أن أصبحت الكتب ورائحة الكتب وحروفها وعناوينها ونوع تجليدها ضرورة حيوية لا يمكن الاستغناء عنها، حتى صارت أمها تعجب ـ ولما تبلغ كوليت التاسعة من العمر ـ من زهدها بكتب الأديب سان سيمون ورغبتها في الكتب الروائية العاطفية وتقول لها بلهجة الناصحة المشفقة: "إن في هذه الكتب كثيراً من المشاكل، وكثيراً من الحب يا بنيتي الحبيبة، إن للناس هموماً أخرى في الحياة، أليس لهؤلاء العشاق الذي تقرئين أخبارهم في هذه الكتب أولاد يربونهم، أو حدائق يعتنون بها يا قطتي العزيزة.. إني أرضى بك حكماً في ذلك.. هل سمعتني أنت وأخوتك أتكلم عن الحب كما تتكلم عنه هذه الكتب؟ ومع ذلك فإن لي الحق أن أقول كلمتي في الموضوع، لقد تزوجت مرتين ورزقت أربعة أولاد..

وتسترسل أمها في مخاطبتها وتسليتها قائلة "لما وضعتك يا بنيتي كنت أخيرة أخوتك، لقد قاسيت آلام الوضع ثلاثة أيام وثلاث ليال، ولما حملتك في أعلى أحشائي كنتُ ضخمة كالبرج، ثلاثة أيام.. إنها لطويلة، إن العجماوات يخجلننا نحن النساء اللواتي لا يعرفن كيف يضعن حملهن بفرح وسرور، ولكني لا آسف على آلامي التي لقيتها في سبيلك، ويقال إن

الأولاد الـذين تحملـهم أمهـاتهم في أعـالي أحشـائهن والـذين يصعب نزولهم نحو عالم الضياء هم أولاد أعزاء لأنهم أرادوا أن يمكثوا بـالقرب مـن قلـوب أمهـاتهم وألا يتركوهـا دون أسـف وحسرة..".

وهكذا تمضـي هـذه الطفولـة في هـذا الوسـط العجيـب، تسـجل فيـه ذكريـات، وتلـتقط حـوادث، وتـدون ملاحظـات، وترسم على صفحات الذاكرة الواعية آلاف المشاهد والصور الـتي كونـت عـدة كوليـت الأدبيـة ورصـيدها مـن المشـاعر والأحاسيس.

إن آثـار كوليـت صـورة منعكسـة لحياتهـا الغنيـة بالعواطف، فهي ترجمة ذاتية أضافت عليها شيئاً من الخيال الأدبي الممتع اقتضاه الفن الروائي ودواعي الصنعة الكتابية، وقد تجلّت في هذه الآثار أو إذا شئت في هذه الحياة مراحل التجارب القاسية التي مرت بها، تلك التجارب التي مثلت على مسرح الحياة الزوجية، فقد تعاورها أربعة أزواج خرجت بعدها بفكرة سيئة تشاؤمية عمن تدعوه "الحيوان الإنساني".

فقد باتت كوليت بعد موت ويللي، زوجها الأول، رمز فشل حبها الأول تنتظر الحب الأكبر، برزخ السلامة الذي تعبر عليه إلى حياة زوجية صحيحة، ولم تشأ البقاء في عالم الحرية

بعيدة عن قيود الزواج والتزاماته لأن حريتها ثقلت عليها، واستقلالها أتعبها، ولأن المرأة الحرة الطليقة في نظرها "ليست امرأة" ولذا بدأت تجربتها الثانية بزواجها من السيد "رينو" فلم تجد معه الحب والرجل المنشودين، فقد كانت تريد "سيداً قوياً وعاطفة كبرى" فوجدت رجلاً ضعيفاً، وخيبات مريرة باحت بها فقالت: "كنت أتمنى من صميم قلبي أن تتغلب إرادة رينو على إرادتي، وأن يكبح عناده عنجهيتي المتمردة.. فإذا به أكثر ليونة من اللهيب وهو محرق مثله، فهو دون أن يسيطر عليّ، واأسفاه يا كلودين هل كتب عليك أن تكوني دوماً سيدة نفسك..".

وفي مكان آخر تصف كوليت الشقة التي باعدت بينها وبين رينو قائلة: "لم أجد أبرع منه في كتم عواطفه وخلجات نفسه والانسياب من بين يدي وغمري بحنان متموج مبهم، هو يحبني وليس في ذلك شك، بل هو شيء أكيد، ولكنه امرأة أكثر مني أنا المرأة، فهو أكثر بساطة مني، وأقسى قلباً، وأكثر هوى وتعلقاً بمن يحب..". وكان أكثر ما يسوؤها منه تمسكه بالحياة وجزعه من شبح الهرم قالت: "إن هذا الرجل الذي يفترسه الخوف من الشيخوخة والذي يكتشف بدقة تدعو إلى اليأس التجعدات الصغيرة، والغضون في زوايا العينين

يرقص طرباً في الحاضر دافعاً يومه نحو غده في حين تجدني متعلقة بالماضي وإن كان الماضي هو الأمس متلفتة دوماً إلى الوراء بأسف وحسرة..".

عاشت كوليت بعد هذه التجربة فترة من الزمن في يأس مرير وعزلة صوفية بعد أن ضربت بينها وبين العالم بحاجز شفاف يتيح لها أن ترى كل شيء ولا يصل إليها شيء، إلى أن شاءت الأقدار أن تتزوج ثالثة سنة 1912 السيد هنري دي جوفنيل المفوض السامي السابق في سورية ولبنان، وافترقا بعد أن ترك في قلبها جرحاً دامياً. وتقول كوليت تصف نهاية هذه العلاقة مصورة دبيب الملال والبغضاء المؤديين إلى الفراق: "إنه يجهل مقدار حبي له ومدى إخلاصي وصداقتي، كنت أخفي عنه عيوباً هو عنوان نجاح نوع معروف من الرجال كالرياء والخديعة وضعف الوازع، ورقة الوجدان، وما كنت لأفعل هذا لو لم تتناسب هذه الصفات وملامح وجهه القاسي، إن خطيئتي ناشئة على ما أعتقد أنني لم أستطع فصله عن فكرة اللذة، حتى إذا أشبعت هذه اللذة خلفت بعدها البرودة وعدم المبالاة، وإذا ظلت جائعة سعت دائماً نحو ما يسدُّ رمقها.. إلى أن تقول: "لقد حدث شيء بيننا سمم كل هذا.. الحب أو بالأحرى هذا الخيال المديد الذي يمشي أمامه، ومنذ ذلك الحين أصبح في

نظـري معتمـاً وفارغـاً.. لقـد شـعرت بـالخطر عنـدما احتقـرت وازدريت كل ما أعاني، بل منذ أخذت يوماً أفكـر بكـل مـا لم يعطـني وهكـذا دخلـت في نطـاق الظـل البـارد الـذي يتقـدم الحب.. إني غيرى بل مقروحة الفؤاد من جملة قالها.. يـا لهـا مـن عبـارة فظيعـة نطـق بهـا بهـدوء وتـردد كـأنـه يهجـي حروفهـا. "أخشى ألا يكـون أحدنا بحاجة إلى الآخر بعد الآن".

فـإذا لم يكـن بحاجـة إلـيّ، فمـاذا فعلـت إلى الآن، ومـاذا عسـاني أصنع بعـدها بقربـه، إنـه لأشـد ضـرورة إلـيّ مـن الهـواء والمـاء، إنـي أفضـله علـى المُلـك الضـئيل الـذي تسـميه المـرأة الكـرامة ومعزة النفس، إنه ينتصب أمـامي وحـده على أنقـاض أحلامـي المبعثـرة.. إنـي لأتناسـى بصـبرٍ جميـل حبـه الـذي سـبق حبنا، والوجوه التي قبّلها قبل وجهي.. إني أرقبـه وحـده.. وألعنـه وحده.. وأغار عليـه وحـده.. أمـامي هـدف واحـد هـو هـذا الرجـل الذي لا يحبني وأحبه.. الوصول إليه والخوف من فـراره وإفلاتـه من يدي، ثم التقرب إليه مـن جديـد لاسـترداده تلك هـي مهنتي ومهمتي..

ثم يتراءى لها وسـط هـذه الحيرة شـعاع الأمـل بـالرجوع إلى الطبيعة سلوى المحزونين: "إن جميـع مـا أحببتـه سـيرد إلـيّ إذن، النور والموسيقى وحفيف الأشجار ونداء الحيوانات الأليفة كـل

هذا سيرد إليّ ولكن من خلاله.. لقد تخيلته عند أول لقاء، وكان لاصقاً بي إلى حدٍ توهمت فيه أني ملكته إلى الأبد، لقد أردت بدافع جنوني أن أتجاوزه ظناً أن حدود عالمي عثرة في سبيلي، وأعتقد أن أكثر النساء يتهن أول الأمر مثلي قبل أن يستعدن أمكنتهن الواقعة إلى جانب الرجل".

تلك لمحة عن مأساة كوليت العاطفية والزوجية، ويؤخذ عليها تجاوزها في أحكامها بضعة رجال معينين ألقاهم القدر في طريقها إلى الجنس عامة، وفي الحق فإن كوليت لم تلجأ إلى التعميم، لم تقع في هذا اليأس إلا بعد أن خبرت محيط باريس الآخذ منذ 1900 في الانحلال والتدهور وقيام العلاقات بين الأفراد على الرياء والأنانية والمنفعة، ومع أن كوليت ذات الطبيعة الخيرة والنفس السمحة فقد نعمت في شبابها بهذا المحيط وتمتعت بملاهيه إلا أنها لم تندفع بكليتها ودون وعي في خضمه بل كانت تتجاذبها عوامل التردد وعدم الرضى والحنين إلى جواء فسيحة. وكان من السهل عليها أن تلجأ في حالتها هذه إلى التصعيد والتدين شأن الكثيرات من العبقريات لو لم ينقصها الإيمان، وكان من السهل أن ترتفع بالفكر المجرد إلى مستوى الحكمة الفلسفية لو لم تكن امرأة عريقة في أنوثتها وسجينة لأن الإحساس صفة غالبة عليها

على أدبها فوسيلة وحيدة للمعرفة، ومما يزيد في قيمة إحساسها جدته وتنوعه وتجرده عن الصبغة الأدبية المصطنعة، ولعل أصدق ما ينطبق على أدبها ما قالته في تعريف الغيرة عند النساء: "الغيرة نمو في حاسة السمع، وحدة في النظر، وسرعة وخفة في الخطو والتنقل، وحاسة شم تتنسم هباءً منثوراً تركه شعر امرأة في الفضاء".

إن سر أدب كوليت يتجمع إذن في حسن الاستجابة لنداء الإحساس والشعور، ولكي تكون هذه الاستجابة منتجة زودتها الطبيعة بحواس حادة، نشيطة، يقظة جعلتها تعبر في آثارها عن أمالي الطبيعة بعينها وأنفها ولسانها ويديها ففي كتبها لمحات كثيرة تدل على قوة حواسها حدة الرؤيا الفنية عندها "فالسماء مثلاً في زرقة الثلج تخططها عصافير خرساء" و"رائحة الأقاقي قوة، متميزة إلى حد أن الحضور التفتوا جميعاً عند فتح الباب ليشاهدوها وهي تمشي نحوهم" و"الحرارة الجافة الملأى بالغبار تشتملها كرداء مريح وسيع" "وسقوط المطر يشبه وقع اللآلئ المنتظم في الماء" و"القطط تتبادل في موائها الضحكات المرتجفة والعويل والصفير والصراخ الحاد الذي تسمعه الليالي وحدها" ثم أن العواطف نفسها تتجلى أيضاً في الإحساسات، فالعواطف في نظرها أشياء يمكن

لمسها وسماعها ومشاهدتها، فإن شذوذاً خلقياً في نظر كوليت يشبه على حد قولها "عقدة أو نتوءاً منتفخاً في جذع شجرة" كما أن تنازل امرأة لمصلحة ضرتها "فيه رائحة حماية غريبة شبيهة برائحة قشر البرتقال التي تغلب رائحة سائر الحشائش في منقوع البزورات".

ليس في أدب كوليت مرارة أو ثورة أو تمرد، فقد فتحت صدرها وقلبها للحياة فاستنشقت عبيرها بجميع حواسها اليقظى وقوى فكرها الواعي واستخلصت روح أدبها من ثلاثة ينابيع تلاقت مجاريها فيها:

الحب، والطبيعة، وعالم الحيوان.

أما الحب فقد عرفته معرفة لم يصل إليها إلا القلائل من كتاب زمانها، ولا أقصد بالحب تلك الشهوة الجامحة، ولا ذلك الحب الذي يثمر بالخطيئة وما تجره من مواكب الحيرة والحسرة والندم، ولكنه حب قائم على تجارب حسية جنسية مليء بالجواذب الخفية أو الوجد في ظل الاتحاد الجنسي عند المرأة والرجل، فبعدت بذلك عن الحب المثالي الرومانتيكي المصطنع بقدر ما اقتربت من الحب الغريزي البائي حب المرأة لزوجها، والأم لولدها، والكلب لسيده، والولد لقطعة الأرض التي ولد عليها، ولم يفتها في مواضع عدة من كتبها تصوير

الحب الشهواني ومآسيه، صورته بأسلوب كوِّن من ذكاء دقيق وتجربة واسعة وانتقاد مصيب.

وبعد فهل كان لكوليت فلسفة في الحب الذي يدور حولها أدبها؟ إذا كان يصح الكلام عن الفلسفة في معرض الإحساسات فإن هذه العبارة الموجهة إلى المرأة: "اقتربي من الرجل، ولكن احذري سلطانه الذي يرصدك.." فبطلات كوليت أسيرات حاجة الحنان والعاطفة الكامنة في قلوبهن، يسعين نحو العبودية ويتجنبنها في آن واحد، إذ لا يكدن يجدن أنفسهن وحيدات كما تقول كوليت حتى يحلمن بالسجن الأبدي، وعندما يقعن في الأسر يشرعن في ندب الحرية والاستقلال والبكاء عليهما.

أما الطبيعة فقد وجدت فيها كما وجدت في عالم الحيوان تعويضاً عن صداقة البشر ووسيلة للاتصال بعالم الغرائز الأكبر الذي يحتل الجانب الأوفى من أدبها وقد قاسمت كوليت الحيوان حبه للاستقلال والعبودية معاً، فإن هذه القطط التي تلعب مع بعضها بضراوة، وهذه الكلاب الأمينة المشوقة إلى الحب والعبودية لها مقامها في أدب كوليت، وهي أحق من يفهم غرائز هذه الحيوانات لأن شخصيتها امتزجت بشخصيتها واتحدت معها كما تآخت مع

جميع الغرائز وجميع الحيوانات حتى قال عنها أحد النقاد يوماً: "كان من الممكن أن تكون كوليت نحلة لا امرأة، بل كان من الممكن أن تقوم لوحدها بدور الكلب والذئب معاً فهي ذئب مثلاً بحبها للحرية والاستقلال والانطلاق، وهي كلب أو كلبة لتعلقها بحياة الأسرة التي تسوقها إلى الرضى بالمرقد، والقناعة بقصعة الحساء وطوق الخرز الذي يزين عنقها والحلم بيد الرجل السيد تداعب رأسها بعطف وحذر".

ولم يكن مراد كوليت حين وجدت شبهاً بين الحيوان والإنسان أن تظهر الحيوان في شكل آدمي كما فعل إيزوب عند اليونان ولافونتين عند الفرنسيين وابن المقفع عند العرب بل أنابت ببراعة لا مزيد عليها أحدهما عن الآخر، فقد جمعت مثلاً بين المرأة والكلبة الغيرى على صعيد الغريزة الهائجة، وجمعت بين المرأة والقطة على صعيد الخبث والتعلق، فكوليت أديبة الغرائز وشاعرتها الكبرى، وليست هذه الغرائز من نوع تلك الغرائز الرومانتيكية التي شوهها الأدب والفلسفة أو غيّر معالمها الاستطلاع وثرثرة العلماء وتحليلاتهم، إن هذه الغريزة التي تصارعت في نفسها هي قريبة من الحياة البدائية الحيوانية السليمة الفرحة كغريزة الزهرة المتفتحة، والكلبة اللعوب، والبرية التي تكتسي في الربيع وتنزع بدافع

هائل نحو الحياة السعيدة، وليست الغرائز عندها فوضى غامضة أو مظلمة غير واعية بل هي منظمة، منسجمة متناسقة تسير حسب إيقاع الحياة الإنسانية الخالدة.

كان لكوليت وجوه متعددة برزت في حياتها الطويلة وأدبها الخصب، ومن هذه الوجوه، كوليت المرأة التي حافظت على صفات وخصائص جنسها، فجمعت بين الأديبة وربة البيت التي طهت الطعام، وطرزت القماش، واخترعت أنواع الطيوب والعطور، والأشربة والتي نقبت في عالمي الزهر والنبات كي تصنع المساحيق لحفظ جمال المرأة، ومنها كوليت التي أبت بعد موتها ان يراها أحد كي تبقى لها في الأذهان صورة الحياة الجميلة لا الموت القبيح، ومنها كوليت التي عطفت على بنات جنسها في كتبها وبخاصة اللواتي صادفَتْهُنَّ في أروقة المسارح وردهات الموسيقى البشعة الرهيبة، فلم يكن أبرع منها في وصف الراقصة التي "تسارع في فترة الاستراحة أو بين رقصتين إلى إرضاع طفلها الذي ينتظرها في غرفة تعجّ بالصناديق والحقائب". وكلما قرأ الإنسان كتبها بدا له تعدد شخصيتها، فهي تارة ريفية يخفق قلبها وخفقان النبات، وتارة باريزية انتزعتها مشيئة الحياة في قريتها النائية وقذفت بها في بحران باريز وأخطارها، ومرة ممثلة في المسارح الغنائية

والموسيقية تصف حياتها وحيوات رفيقاتها اللواتي يجهدن للعيش ومدافعة البؤس، ومرة أخرى ناقدة مسرحية وسينمائية ذات أسلوب حي بديع، وحيناً آخر كاتبة عجوز تصف المرأة في خريف حياتها في روايات دسمة تنبض بالذكريات المؤثرة، وكانت في كل ذلك مثالاً للمرأة الشجاعة الجريئة التي تسعى في سبيل حريتها واستقلالها المادي والفكري وصون شخصيتها من الهدر والفناء.

لقد احتفظت كوليت على الرغم من شيخوختها وقعودها عن الحركة بحيوية عجيبة تضاهي حيوية الفتاة في عنفوان العمر، واحتفظت بحساسية فائقة واهتزاز لمشاهد الكون ونظرة واسعة تستوعب الحياة المحيطة بها وغريزة نهمة للاستمتاع بها، فلم تكن وهي المرأة الوحيدة، الضعيفة القوية معاً، على ما مرّ بها من أهوال تسخط أو تشكو من معاكسات الأيام ومعاندات الدهر، بل كانت أنيسة، بشوشة حتى لينسى جليسها أنه في حضرة امرأة عبقرية، وهذا لا يعني أنها كانت تسعى وراء صداقات الناس أو تفرض نفسها عليهم.. لا.. بل كانت تحتفظ دوماً بالمدى الذي يفصلها عنهم، وقد عرف ذلك أصحابها وعشراؤها فاحترموه، ومهما بلغت منزلة المقربين إليها فقد كانت تحتفظ إزاءهم بهذا الخفر

الريفي، أو حذر الفلاح الغريزي الذي يلقي حجاباً بينهم وبين عواطفها الدفينة وحياتها الروحية، وهي على الرغم من أن سيرتها كسير العظماء المشهورين معرضة للجمهور وتطلع المتطفلين فقد كانت تصون في مطاوي نفسها كما تقول "أشياء حبيبة إلى نفسها".

رزقت كوليت حساً حاداً، فتنفست عبير الحياة، وتذوقت حلاوتها، وأصغت لنداء الطبيعة ودمدمتها، فانعكس حب الحياة على أدبها، وكان أحسن ما فيها أنها استطاعت التعبير عن هذه الغنائية بأسلوب عجيب، حيّ، ملوّن، خرجت فيه الألفاظ عن كونها ألفاظاً إلى المشاعر النابضة، فامتلأت كتبها بالأشكال والألوان والطعوم والروائح فهي تحوي في شباكها الذهبية كما قيل "ثروات الدنيا جميعاً" كل هذا يؤدي ببساطة ودقة فيهما حرارة منعشة معدية.

نعم لقد كانت كوليت تداعب الحياة مداعبتها للإنسان والحيوان والجماد، لا تفرق في نظرتها بين هذه المخلوقات جميعاً. قالت لصديقتها يوماً في معرض حديثها عن حديقتها: "لقد روّضت هذا الشتاء زهرة من زهور الأقاقيا" وبلغ من حبها للطبيعة وتعلقها بها أنها كانت تعلم أسماء يعجز عن ضبطها وحصرها أرباب الاختصاص كأسماء الحشرات الصغيرة

وهوام الليل وأنواع البقول الغريبة والحشائش النابتة في الحقول والغابات وضفاف الغدران..

وبلغ من حبها للحياة وتعلقها بها أنها كانت تقتني قوارير العطور الفوّاحة، وتتلذذ طعم الفواكه، وتحدّق في كل جليل ودقيق من مظاهر الكون، فجعلت بيتها متحفاً صغيراً للقطع الزجاجية والبلورية والطرف والتحف والصور والحشرات المحنطة وكل ما أجادت صنعه وتركيبه يد عامل صناع.

ولم تكن تحب أعراض الدنيا فحسب بل كل ما يدب ويعيش وينمو ويزهو، ويتفتح فتخلق من المشاهد المألوفة التافهة لذة عميقة، شاهدت مرة خفاشاً يطير في الليل ناشراً خياله على الجدران والسقف أكبر منه بألوف المرات فقالت لضيفتها التي ذعرت منه: "لا تخافي.. لقد أحس المسكين أنه ضئيل صغير فنشر جناحيه ليوهمنا بأنه كبير ومخيف" قالت هذا بلهجة فيها إشفاق وتحبب..

كان لكوليت أسلوب في الكتابة يرتكز على قوة الكلمة فهي أداة فنية للتصوير والتعبير ولم تكن على عادة الكثيرين من الكتاب تترصد عواطفها وأحاسيسها لتسجيلها وحبسها في القرطاس بل كان النظر والانعكاس والحياة والكتابة شيئاً واحداً عندها، وهي القائلة في رحلة لها في

منطاد: "إني كقطة سجينة في سلة" تعني أنها سجينة الفضاء والفراغ، إذ قد حرمت في أعالي الجو من الزهور والحيوان والطبيعة لأن شعورها على حد تعبيرها "هو في الأرض" ذلك أنها تنظر إلى المخلوقات نظرة شاملة واسعة ليس في إطارها الفلسفي المتافيزيكي بل كأحياء على سطح الأرض التي أحبتها والتي تتموج أمام ناظريها تبعاً للأضواء والفصول والظروف.

لقد ظلت هذه الصلة بينها وبين العالم حتى النهاية. وكانت كلماتها الأخيرة في سكرة الموت موجهة إلى زوجها تدعوه إلى مشاركتها في إحساسها: انظر.. انظر.. مشيرة بذلك إلى مجموعة من الفراشات المحنطة التي جمعتها بيديها، وكانت لما التقت عيناها بأحد عُوادها ابتسمت، ولم تكن يداها مرتخيتين شأن أيد المحتضرين بل كانتا ترتفعان وتهبطان وترسمان ببطء في الفضاء أقواساً ودوائر..

عاشت كوليت حتى تجاوزت الثمانين، وهي حياة طويلة، ولكنها ملأى بالأحاسيس ومترعة بالمشاعر، فكانت شيخوختها كنهاية لحن بديع أدهش الناس عنفه وشدته، ومن حسن حظها أنها لم تذق سأم الشيخوخة وكآبتها اللتين تصحبان أواخر العمر عادة، وأنى لها الحزن والكآبة وقد

عُصِمت من الوحدة والوحشة والانفراد، فقد قيض لها القدر زوجاً أصغر منها سناً أعانها على حزم جرز حصادها الأدبى فتجاوز صيتها حدود بلادها إلى أنحاء العالم، وأشاعت السينما والصحافة والمسرح صورتها بين الجماهير وكرمتها الدولة وانتخبت رئيسة وعضوة في الأكاديميات والجمعيات، فكانت سعيدة بهذا المجد، فخورة بهذا التقدير، وعوضاً عن أن تدفعها هذه المظاهر إلى الغرور والتعاظم ازدادت تواضعاً وأنساً، واشتد تعلق الباريزيين بها، ولما أبى رجال الكنيسة المشاركة بجنازتها "لغلبة الوثنية كما يقولون على أدبها وابتعادها بزواجها المدني عن روح الكثلكة" عمّ الحزن والأسى فرنسا من أقصاها إلى أقصاها، فجرى لها احتفال شعبي رائع دلّ على المكانة العظيمة التي كانت لها في قلوب الفرنسيين ممن تذوقوا أدبها أو قرؤوا كتبها أو سمعوا بها حتى قيل إن جنازتها فاقت في جلالها وبساطتها جنازات هوغو وأناتول فرانس وبول فاليري مع العلم بأن آثارها مجردة عن كل ما يشغل زمانها من الأحداث السياسية والاجتماعية في حين أن آثار هؤلاء العباقرة ذات طابع نضالي أو أخلاقي له صلة وثيقة بحياة الجماعات والتفكير البشري مما يوجب تعلق الجماهير بهم والحزن لفقدهم. وفي الحق فإن آثار كوليت

تدور حول العواطف والأهواء الإنسانية، ففيها همس ودمدمة بعيدة عن الصخب، تصف مأساة الرجل والمرأة وما يعتريها من أوهام وأحزان، وما يطرأ عليها من مفاجآت، فهي تولد وتعيش وتموت في الظل، ولم يخطئ من شبه كوليت "بنبات نحيف ضعيف نبت في ناحية خفية من بستان جميل أنيق" ومن يدري فلعل توافق قلبين أو اختلافهما أجدى في نظر هذه المرأة من الانقلابات التي عمت الدنيا وغيرت مجرى التاريخ.

وإن أكثر ما يعكس أدبها تجربتها النسوية، فالحب والهجران والغيرة وأنانية الرجل ومرارة الجمال الزائل، وهزيمة المرأة الكهلة تجاه الفتوة العارمة الصاعدة، ومعركة المرأة المنعزلة في ميدان الحياة، والزهد في حب الرجل وما يعقبه من حنين أو حقد أو حسرة، كل هذا يؤلف أركان أدبها الحي، وهي لم تكن في كل هذا مخترعة أو متخيلة أو مراقبة من الخارج بل مجربة ذاتية، ومحللة نفسانية شاعرة عرفت ذلك وأجادت التعبير عنه حتى قالت: "الحب غذاء قلمي وحياتي" وقالت في كتابها "ولادة نهار" تصور الزهد في الحب: "الحب هو من أمور الحياة التافهة، لقد انسحب هذا من حياتي، كما أن عاطفة الأمومة أمر تافه وكبير معاً، حتى إذا تخلصنا منهما معاً بدت الحياة مرحة متنوعة عديدة الصور ولكننا لا

نستطيع الإفلات منهما كيف ومتى شئنا".. تريد بذلك أن في الحب نوعاً من القدرية لا يستطيع البشر النجاة منها، ولم تكن كوليت مخدوعة بذلك، وهي بخلاف الكتاب الذي نقموا وتمردوا على الحياة ثم رضخوا لمشيئتها تقبل الحب وغريزة الجنس بروح رياضية مجردة عن الأوهام والخيالات والغضب، فهي تقبل الحب دونما ثورة أو تمرد بل برضى وقناعة وهي تراه أجمل شيء في الحياة وعندما طلب منها عقب تمثيل روايتها "جي جي" توجيه كلمة للجمهور قالت في جملة ما قالت:

إن حياتي طريق طويلة

وإن قلبي تجربة طويلة

على أنني سعدت ولهوت خلال هاتين التجربتين..

ويختلف أدب كوليت عن غيرها في تصور السعادة والحب والاستجابة لندائهما، فقد غلبت على آثار أغلب الكتاب الفواجع والحسرات والحنين إلى المرأة، أما أدب كوليت كما يبدو في آثارها فليس فيه فواجع وخواتيم محزنة، وليس الرجل أو المرأة عندها هدفاً في حد ذاته في تحقيق السعادة المنشودة والاستمتاع بها، ومرد ذلك إلى طفولتها، فقد حلا لأحد الكتاب المقارنة بين كوليت والكاتب استندال الذي احتلت

المرأة في أدبه نقطة الدائرة فوجد أن أدب استندال يجسم المثل الأعلى للسعادة في المرأة والحب، ففي آثاره فواجع وعنف تنتهي على الغالب بالزهد القسري أو الموت أو الانتحار، وتعليل ذلك أن طفولة استندال التعيسة التي سادها الحقد والحرمان من عطف الأم والأب جعلته ينزع عن طريق اللاشعور إلى التي توفر له الحنان الذي حرمه في طفولته، أما كوليت فقد كانت طفولتها سعيدة مشرقة وضاءة في ظل أبويها اللذين أحباها فنزعت بعد أن قست عليها الحياة وأدمتها لكماتها إلى تلك الطفولة البريئة الهنيئة فانعكست صورها البهيجة على أدبها وظلت تحن دائماً إلى تلك الأيام الحلوة التي لما تكن عرفت فيها الرجل وآلام الحب وخيباته ومآسيه وهي القائلة عن نفسها: "إنني أنتسب للبلاد التي تركتها".

كتب إليها الكاتب الكبير فاليري: "إلى كوليت الوحيدة من بنات جنسها التي عرفت أن الكتابة فن وها هي ذي مالكة ناصية هذا الفن حتى أخجلت كثيراً من الرجال الذين يجهلون هذه الحقيقة".

وفي الحق فإن الأدب النسوي لم يعرف أديبة تفوقها مقدرة في التعبير والتحليل والعبارة المصورة التي تنقل المعاني من المجرد إلى المحسوس.

قالت يوماً لمن سألها في إصلاح الإملاء الفرنسي: "لا تحطموا لي كلمتي" لقد كانت تجيد انتقاء ألفاظها واستعمالها، ولها مقدرة عجيبة في شحن كلماتها بالحياة وتزويدها بالحركة واللمعان إذ لم تكن الألفاظ عندها مادة عادية بل أحجار كريمة ترصفها كالصائغ بدقة، وكانت براعتها أكثر ظهوراً في استعمال الأفعال والصفات الجريئة فجاء أسلوبها يعجّ بالصور والفتوة والري والإشراق.

خواطر صَحفيّة

أصبحت الصحيفة اليوم مصدراً من مصادر ثقافة الإنسان الحديث بل لعلها المورد الوحيد لكثير من الناس يلتمسون منه غذاءهم الفكري بل هي ـ إلى جانب المذياع والتلفزيون ـ النافذة الوحيدة التي يطلون منها على العالم.

بيد أن الباحثين درجوا ـ منذ أن اخذت الصحافة في التوسع والامتداد ومزاحمة الكتاب والمجلة، واحتلال مكانها كأداة إعلامية وإعلانية ـ على الحط من قيمة الصحيفة بوصفها أداة تثقيفية جماهيرية، بل قد ذهبوا بعيداً فوضعوا قارئ الصحف اليومية في آخر مراتب المثقفين وحرّموا عليه حق الادعاء بأنه رجل مثقف وحجتهم في ذلك أن الصحيفة بخلاف الكتاب والمجلة تعكس الحوادث اليومية الحالية وتعيش من الآنيّ المؤقت الموصوف بالسطحية وسرعة الزوال والطيّ كما تقتضي طبيعة العمل الصحفي الجذاب والمؤقت معاً.[1]

---

(1) من الطرائف مفاضلة لطيفة تخيّلها أحد الأدباء جرت بين كتاب وصحيفة قال الكتاب: إنك تنعمين بألوف القراء صباح مساء بَيْدَ =

فإذا كان قارئ الصحف أكثر الناس زهداً بمطالعة الكتب والمجلات ففي هذا العصر المتميز بالسرعة وغلبة المسموع والمرئي على المقروء والمكتوب ورجحان الحادث الحالي على المدوّن الماضي، كان لا بدّ للصحافة أن تؤدي دورها في الإعلام والتثقيف وإشباع حاجة الرجل المعاصر إلى المعرفة بأسلوبها السريع المتغير اليومي الذي يساير الأحداث أو يستبقها حتى غدا قارئو الصحف في ذلك أنواعاً: فمن الناس من يطالع الصحيفة بأسلوب انتخابي ذوقي مفضلاً بعض الزوايا على سواها، ومنهم من يسعى وراء الخبر المحلي، أو المقال الافتتاحي، ومنهم من ينشد في الصحيفة الصفحة الأدبية

أنك لا تبقين بين أيديهم إلاّ ساعات إن لم تكن دقائق معدودة ثم يؤول مصيرك إلى التمزيق والتلف فيلقي بك عندئذٍ في سلة المهملات أو يتخذك قراؤك، في أحسن الحالات أغلفة لصرّ حاجاتهم وهكذا تولدين سريعاً وتموتين سريعاً دون أن تتركي أثراً ما في نفوسهم.

فردت الصحيفة قائلة: لا ريب في أنك أيها الكتاب تفضلني بطول العمر ونعمة البقاء والخلود، ولكن لا تنْسَ أنك قد تعيش سنين طويلة في عالم الظلام والنسيان مجهولاً ومهملاً من أكثر الناس ترقد فوق رفوف مكتبات أو مستودعات يعلوك الغبار هذا مع تعرضك للبلى والأرضة وغيرها من الآفات.

أو الرياضية أو المالية ولعل أردأ هؤلاء القراء وأعجلهم من يكتفي بقراءة العناوين، وما يقال "المانشيتات".

إن هذا كلّه يحملنا على التساؤل عن مدى إسهام الصحافة في ثقافة المواطن العادي.

كان "فاليري" يقول في معرض كلامه عن الصحف الواسعة الانتشار وذات المستوى الفكري أو الفني: "إن من بين النقاط الأساسية في تهذيب المواطنين تعليمهم كيفية قراءة الصحف "اعتقاداً منه أن الصحيفة بتوغلها البطيء الثابت بين طبقات الشعب عامل من عوامل تكوين الرأي العام وتطوير الأفكار، وأن الصحيفة إذا عُني بمادتها ومستواها وتبويبها وتبسيط أبحاثها وتكييفها وتبدل أذواق قرائها أسهمت في خلق المواطن الواعي وتنمية روح التمييز والنقد فيه، وتزويده بمادة ثقافية قد لا تغنيه عن قراءة الكتب بل تجعل القوى العاقلة فيه في حالة تنبّه وتقبّل وامتصاص.

هذا وقد أثبتت التجارب والملاحظات أن المُدمنين على قراءة الصحف وأن لم يصلوا إلى مستوى عالٍ من الثقافة فإن قراءتهم المتواصلة للصحف الراقية ذوات الأبحاث الأدبية والعلمية والاقتصادية والتعليقات السياسية مما يجد فيه المواطنون المثقفون متعة مؤقتة، وفائدة عابرة، هم أكثر

المـواطنين وعيـاً، وأشـدهم تحسسـاً ببيئـتهم، وتطلعـاً إلى مـا يجري في العالم.

ومن القضايا المسلم بها أن الصحف القوية هي التي تسعى دائماً إلى اجتذاب جماهير القراء إليها وسط معركة صحفية رهيبة تتنازع القراء بأساليب شتى من الترغيب والإغراء. وإذا علمنا بأن الصحافة ديموقراطية المنشأ والهدف والأسلوب وأنها تتوخى دائماً العدد الأكبر من أبناء الشعب المحدودي الثقافة والمعرفة والعلم أيقنّا بأن رسالة الصحيفة لا تقف عند حد إعلام الجمهور، وإشباع غريزة التطلع إلى الحاضر فيه بل تتعداه إلى التنوير والتثقيف وإتمام المعلومات، وينبغي في هذا الوقت الذي تفسح فيه الصحف ميدانها للكتاب والمفكرين والعلماء ولكل ذي خبرة واختصاص أن يحسب حساباً للقارئ العادي وذلك باستدراجه إلى مطالعة الموضوعات السهلة الشديدة الارتباط بحياته وتصوراته وغاياته البعيدة أو القريبة.

الأدب والصّحافة

من الشائع المعروف أن أغلب الأدباء الذين نعموا ببعد الصيت وسيرورة الاسم جاؤوا إلى الأدب عن طريق الصحافة أي أن هذه كانت لهم بمثابة مدرسة تعلموا فيها إلى جانب انتظام مواعيد الكتابة، أساليب البيان والتعبير السهل في مخاطبة الجماهير، واستثارة القريحة في مناسبات منتظرة أو مفاجئة، والاستجابة لدواعي الظروف التي يفرضها العمل الصحفي.

وإذا أمعن الباحث النظر في الأسلوبين الأدبي والصحفي وجد أن ما من صفة في إحداهما إلا وفي الآخر نقيضها، فالمزاج الصحفي مزاج ناري، سريع، مواتٍ، يقرب من الاندفاع والارتجال في حين أن مزاج الأديب بطيء، متردد أقرب إلى التأمل والتقدير والإمعان في استعراض الفكرة وتلمس وجوهها المختلفة، وفي الوقت الذي يتعمق الأديب في دراسة موضوعية مراعياً في ذلك مقتضيات المعنى والمبنى في عملية اصطفائية شاقة أو تركيبية معقدة نجد أن أولى مزايا

الصحفي الناجح القدرة على امتصاص واستيعاب الأشياء والقضايا والحوادث الحالية بنظرة سريعة ينتج عنها حلول سريعة مناسبة لها.

وإذا كان للأديب أن يقف موقف الالتزام تجاه القضايا أو المبادئ أو المثل التي آمن بها، أو المناداة بها، أو الدفاع عنها فإن مثل هذا محرم على الصحفي حتى في القضايا التي يطلب إليه فيها أن يختار بين رأيين أو حلّين مما يكثر وقوعه دوماً في القضايا الإنسانية المتشابكة، ذلك أن قارئ الصحيفة ينشد رأياً وموقفاً معيناً في القضايا التي يقرأ عنها وتشغل باله والتي أوكل إلى صحيفته المفضلة الدفاع عنها وصيانتها، فعلى الصحفي إذاً أن يقدم هذه الحلول والآراء بصورة مرضية لا تدع مجالاً للريبة أو الضعف أو اللبس ولو خالف بعمله هذا الحقيقة ومنطق الحوادث والتاريخ والأسلوب.

إن إلقاء نظرة سريعة على إعداد صحيفة قديمة تظهر من خلال زاوية التراجع الزمني صدق ما ندّعيه.

أما الأديب فعليه أن يسير دوماً في خط المبدأ أو المذهب الذي اعتنقه وعُرف به فيتبعه قراؤه مهما كانت الظروف فهو في نظرهم القائد والدليل، وهو البداية والنهاية. وثمة فارق آخر بين الأديب والصحفي وهو أن هذا يعتمد على الواقع الآني

الـذي حـرك فضـوله أو اهتمامـه فعليـه أن يسـتنفد هـذه المـادة الحساسـة السـريعة العطـب قبـل أن يعفيهـا الزمـان وتطويهـا الساعات فتمسي عتيقة بالية لا روح فيها، في حين أن الأديب يختزن المشاعر والمشاهد والصور في سبيل استعمال مقبل قد يطول ميعاده أو يقصر وهذا ما حدا بالشاعر غوته إلى القول: "إذا استطاع الشاعر الاستيلاء على الحقيقة في الحاضر، وإذا عـالج مـا عُـرض عليـه آنيـاً أي في الوقـت الـذي يكـون فيـه الانطباع طازجاً فهو سيعمل حقاً شيئاً جيداً وإذا صادف وأخفق في ذلك فهو لم يفقد شيئاً" أي أن الانطباع يكون قد ثبت في الذاكرة الواعية والقوى العاقلة متخذاً مكانه لحين الحاجة، فهو على كل حال لم يضع.

وإذا كان الاعتماد على الآني السريع من صفات العمل الصحفي فإن هذا العمل يظل ناقصاً، بعيداً عن الكمال في أغلب الأحيان أي أنه لم يستكمل نصيبه من العناية لأن الأثر الصحفي قصير العمر، معرض للزوال بخلاف العمل الأدبي المفروض فيه التنميق والتصنيع والزينة والتأنق في الأفكار والأسلوب، وذلك أن الأديب عندما يبلغ أشده ويتجه نحو الاكتمال المبدع يبخل على الصحيفة بكنوزه، فلا يعطيها أحسن ما عنده بل يدّخره لكتبه وآثاره الحالية أو المقبلة، وإذا

كـان الصـحفي يتجـاوب ومـؤثرات الحـوادث وأصـداء الوقـائع فيعطيها أثمن ما عنده فإنه يدّخر عندما يؤلف كتباً ما يفضل من هذا المحصول بخلاف الأديب الذي يعمل في الصحافة فإنه يستبقي لآثاره الآتية الزبدة ويدع الزبد للصحافة حتى الانطباعات العابرة والمشاعر الطارئة والإيحاءات الآبقة والأحاسيس الشاردة فإنه بها لضنين.

الثلج والشعراء

خير الموضوعات ما يتناسب ومقتضى الحال، وليس من حالٍ تشغل الأذهان، وتستدعي الكلام، وتثير الاهتمام، وتخفف من رتابة الشتاء سوى منظر كسف الثلج الهاطل على دمشق، تارة في شكل رذاذٍ ناعم مسحوق، وتارة في شكل كثيف تشبه القطن المندوف، ثلج يلامس الوجوه، ويداعب العيون، ويدغدغ الأنوف، ويعلو الأبنية والجدران فيغطي كلّ شيء ببساطه الأبيض ويخفي المدن والطرق، ويخرس وقع الأقدام على الأرض.

وكأنّ الثلج يضعنا وجهاً لوجه مع الطبيعة في زمن طال انفصالنا عنها، وأطرق الناس رؤوسهم وحنوا ظهورهم بحثاً عن الرزق وأمور الدنيا، أفلا يمضي على أحدنا أيام بل شهورٌ لا يرفع فيها رأسه إلى السماء لمشاهدة عظمة الكون والتأمل في إبداع خالقه؟

ولا أدري لِمَ رزق الثلج هذا السحر من بين عوارض الشتاء كافة، فالناس بين ذامٍّ للشتاء، ومستثقلٍ ظلَّهُ، وشاكٍ من تكاليفه ووطأته، فلا المطرُ يطربنا، ولا الرياح تشجينا، ولا البرد يرضينا، ولا الأعاصير والعواصف تؤنسنا، إلاّ الثلج حتى إذا هطل علينا انفرجت الأسارير، واستبشرت الوجوه، وانقلب الهمّ أناً، والضيق انفراجاً، ألأنه أبيض والبياض أبداً عنوان الطهارة، ورمز البراءة، ودليلُ الخير؟ أم لأن الثلج حين يمدّ بساطه الأبيض على الأشياء والكائنات، أو يكفنها بكفه الناصع البياض يكون قد وارى ما فيها من قبحٍ وشذوذٍ فتبدو منبسطة، مستوية، فلا نتوء، ولا تعرّج وقديماً فُطر الإنسان على الوحدة والتناسب والتناغم؟ أم أن الثلج ببياضه الذي يشبه الشيب الذي استشاط في رؤوس الكهول ففيه إذاً وداعتهم وسكينتهم ووقارهم فمن حقه علينا الإجلال والاحترام كما يقضي بذلك قانون الحياة وسنة الاصطلاحات؟ لا أدري، لعلّ الثلج كلّ هذا، وليتبيّن كل منا صدى الثلج في قرارة نفسه. ولا ريب في أن القرّاء مشوقون إلى سماع أقوال الشعراء وهم أخدان الطبيعة وعشاقها، ولا يد للمنظر الثلجي، بجماله الرائع، وصمته المطرب، وهطوله الهادئ من أن يجد صدىً في المشاعر مهما بلغت من التبلد والجمود حتى لأكاد أقول: إذا

لم ينظم الشاعر الوصافُ أبياتاً في الثلج فقد فاته شيءٌ كثير وجعل شاعريته لدينا مدار تساؤلٍ واستغراب.

ليس للعرب الجاهليين، على حدٍّ علمي، أبياتٌ في الثلجيات وهم في ذلك معذورون لأن الإنسان نتاجُ البيئة والعرب قاطنو صحاري وبوادٍ، مناخهم شديد الحرارة وبلادهم مشمسة وضّاءةٌ والثلج عندهم نادر إن لم يكن معدوماً وقديماً قيل: فاقدُ الشيء لا يعطيه.

حتى إذا جاء صدر الإسلام شغل العرب عن دنياهم بدينهم وكذلك في العصر الأموي تناول الشعراء الأوصاف الطبيعية تناولاً جامداً، حتى إذا جاء العصر العباسي أكثر الشعراء في القرن الرابع من وصف الربيع والمطر والبرق والسحاب وجميع ما يتصل بالعوارض الجوية إلاّ الثلج، والثلج في العراق من الندرة بمكان، فقد كان نصيبه من العناية قليلاً، وإذا ما انتقلنا إلى الشام وجدنا شعراء عنوا بالثلج في جملة ما عنوا به من الأوصاف الطبيعية فهذا الصنوبري، شاعر الطبيعة الممتاز، وكان يألف الرياض والحدائق، عبّر في شعره عن انفعالاته وكان من الطبيعي أن يستهويه منظر الثلج في الشتاء فقال:

ذهب كؤوسك يا غُلا مُ فإنّه يومٌ مفضَّضْ

والجـــوُّ يُجلـــى ﰲ اليبـــا ضِ وﰲ حُلـى الـدُّرِ يُعْـرَض
أتظـــــنُّ ذا ثلجـــــاً وذا وَردٌ علـى الأغصـانِ يُنفَضْ
وردُ الربيــــــع ملــــــوَّنٌ والـوردُ ﰲ كـانونَ أبـيضْ

ويقول:

ثلـجٌ وشمـسٌ وثـوبُ غاديـةٍ فـالأرضُ مـن جانـبٍ غُـرَّهْ
باتــتْ وقيعاتُهــا زبرجــدةٌ وأصـبحتْ قـد تحوّلـت دُرَّهْ

ويقول:

شــــابتْ فَسُــــرَّتْ بــــذاك وابتهجــــتْ
وكـــان عهـــدُ المشـــيب لـــي نكـــرهْ
حتـــــى إذا اســـــتخفّه الطـــــربُ ﰲ
عُـــرس البلـــدة الـــتي لبســـت بياضـــا

قال:

قـــــد جليـــــت بالبيـــــاض بلـــــدتنا
فاجـــلُ علينـــا الكـــؤوس ﰲ الخمـــرهْ

وإذا ما تركتا الصنوبري لنلقى صديقه كشاجم الكاتب الشاعر الأديب الجواد المنجّم، الذي صادق الطبيعة ولازمها وهو أيضاً وصّاف للثلج فمن قوله:

الثلجُ يسقط أم لجينُ يسبكُ

أم ذا حُصى الكافور ظلَّ يفركُ

راحتْ به الأرض الفضاءُ كأنَّها

من كلِّ ناحيةٍ بثغرٍ تضحكُ

ولندع كشاجم لنلقي زميله السِّري الرفاء وهو أيضاً من عشاق الطبيعة وأصحاب الروضيات، فمن قوله متأثراً خُطى زميليه الصنوبري وكشاجم:

تلألأت الربا لمّا علاها

كأنَّ على الربا أثواب آلِ

كأنّ دُرى الغُصون لبسنَ منه

حُلى الكافور ربّاتُ الحجالِ

تجولُ العينُ فيه وهو فيها

كشُهبِ الخيلِ رحنَ بلا جلالِ

ولم يكن موضوع الثلجيات وقفاً على الشعراء فحسب بل شاركهم فيه الوزراء، فها هو ذا الوزير المهلبي ينسج على منوال أستاذه الصنوبري فيصف الثلج وهو من الأعاجيب في بغداد قال:

الـــــوردُ بـــــين مضـــــمَّخٍ ومضـــــرَّجِ

والزهـــــرُ بـــــين مكلـــــلٍ ومتـــــوَّجِ

والـــــثلجُ يهـــــبطَ كالنثـــــار فقـــــم بنـــــا

نلتـــــدُّ بابنـــــةِ كرمـــــةٍ لم تمـــــزجِ

طلـــــع النهـــــارُ ولاح نـــــورُ شـــــقائقٍ

وبـــــدت ســـــطورُ الـــــوردِ تلـــــوَ بنفســـــجِ

فكـــــأنَّ يومـــــك في غلالـــــة فضـــــةٍ

والنبـــــتُ مـــــن ذهـــــبٍ علـــــى فـــــيروزجِ

ولم يكن الوزير البويهي الصاحب ابن عبّاد أقلّ اهتماماً من المهلبي بالثلج، لنستمع إليه يصوّر جوّ العرس ينثر فيه الثلج بدل الدراهم:

أقبـــــل الـــــثلجُ فانبســـــط للســـــرور

ولشـــــربِ الكـــــبير بعـــــد الصـــــغير

أقبـــــل الجـــــوُّ في غلائـــــلِ نـــــورٍ

وتهـــــــــادى بلؤلـــــــــؤ منثـــــــــور

فكـــــأنَّ الســـــماء صـــــاهرت الأر

ضّ فصـــــار النثـــــارُ مـــــن كـــــافور

ومن قوله:

هـــــاتِ المدامـــــة يـــــا غُـــــلامُ معجِّـــــلاً

فـــــالنفس قيـــــدِ الهـــــوى مـــــأثوره

أو مـــــا تـــــرى كـــــانونَ ينثـــــرُ وردهُ

وكأنّمـــــا الـــــدنيا بـــــه كـــــافورهْ

المحتوى

تقديم – أ. فلك حصرية 5
طه حسين ومصطفى صادق الرافعي 17
طه حسين والمنفلوطي.....37
طه حسين ومحمّد حسين هيكل 42
طه حسين وتوفيق الحكيم.....49
طه حسين والآنسة مي.....59
ماذا بقيَ من طه حسين؟.....61
مقالات ودراسات أدبية 63
زكي مبارك.....65
أديبة القرن العشرين 109
خواطر صَحفيّة 139
الأدب والصّحافة.....143
الثلج والشعراء 147

إصدارات سلسلة
كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم	اختيار	السنة
162	أبو الطيب المتنبي حياته وشعره	فلك حصرية	فلك حصرية	2021
163	آرائي ومشاعري	أ.عيسى فتوح	أ.عيسى فتوح	2021
164	ومضات (شذور وأمثال)	أ.سهيل الشعار	أ.سهيل الشعار	2021
165	الثورة رواية اجتماعية قومية	أ.د. فاروق اسليم	أ.د. فاروق اسليم	2021
166	الصعود المتعثر نحو الأمل	فلك حصرية	د. محمد الحوراني	2021
167	موسم الهجرة إلى الشمال	أ.سهيل الشعار	أ.سهيل الشعار	2021
168	المنسيون في التاريخ	فلك حصرية	فلك حصرية	2021
169	الحضور والغياب في المسرح السوري المعاصر	د. محمد الحوراني	اعداد د. إيمان تونسي محمد إبراهيم العبدالله – صباح الأنباري	2021
170	قصة الأرض	أ. ديب علي حسن	أ. ديب علي حسن	2021
171	زاهد المالح شاعر اللغة المرنيّة	د. نزار بريك هنيدي	د.نزار بريك هنيدي	2021
172	ثقافة الأطفال	فلك حصرية	فلك حصرية	2022
173	مختارات من روائع الثقافة والأدب	جودي العربيد	أ. سهيل الشعار	2022
174	نَفَثاتُ مَصْدورٍ وقصائدُ أخرى	سـراج جـراد	سـراج جـراد	2022
175	كوابيس بيروت	د. ماجدة حمود	د. محمد الحوراني	2022

176	ديوان إيليا أبو ماضي	صبحي سعيد قضيماتي	صبحي سعيد	2022
177	التذوق والجمال في كتابات الأشتر	د. عبد الكريم محمد حسين	د. عبد الكريم محمد حسين	2022
178	الشاعر المتنبي بين الشاعرين حامد حسن ورضا رجب	محمد خالد الخضر	محمد خالد الخضر	2022
179	مختارات من أشعار رسول يونان	حيان محمد الحسن	حيان محمد الحسن	2022
180	ضريبة اللباقة	د.نورا أريسيان	د.نورا أريسيان	2022
181	لغة العرب	ديب علي حسن	ديب علي حسن	2022
182	الباحثُ والمؤرّخ الفُراتيّ عبد القادر عيّاش حياتُهُ وآثاره ويليه كتاب القمر في حياتنا وتراثنا	أ. سراج جَراد	أ. سراج جَراد	2023